عبدالقادر رزق الطويل

القاضي بدر الدين بن جماعة
وتراثه الأدبي

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــــدير ...

كانت أول معرفتى بالقاضى (بدر الدين محمد ، بن ابراهيم ، ابن سعد الله ، بن جماعة) حينما تناولت السفر القيم الذى أهدانيه الصديق الدكتور (عبد الجواد خلف) مدير ومؤسس جامعة الدراسات الاسلامية ـ كراتشى ـ باكستان ، والذى تناول فيه بالدراسة (القاضى بدر الدين بن جماعة ـ حياته وآثاره) ، وهو موضوع دراسته للحصول على درجة الدكتوراه .

وقد أدهشنى أعظم الدهشة ـ وأنا أقلب صفحات هذا البحث القيم ـ أننى أمام شخصية متنوعة المواهب والاستعدادات ، غزيرة المعرفة ، عميقة الفكر ، واسعة العطاء .. وهالنى أكثر : أن ابن جماعة العالم ، المفسر ، المحدث ، المتكلم هو فى ذات الوقت أديب قد امتلك ناصية البيان ، قد عقد له لواء الخطابة ، وشهد له بالكتابة ، وفاضت موهبته بالشعر .

وكان على أن أقترب أكثر من تراث (ابن جماعة) ، ومن الجانب الأدبى بالذات ممسكا بالخيط الذى أبرزه الصديق الدكتور عبد الجواد ، ومقلبا فى بطون المخطوطات علنى أعثر على ما يفيد عقد دراسة عن الجانب الأدبى لابن جماعة .. وكان العجب الأكبر أن بطون المخطوطات تحوى كنوزا رائعة

من المعـارف الأدبية ، لا لابن جمـاعة فحسب ، وانمـا لكثيرين غـيره من أدبـاء هـذا العصـر شـعراء ، وخطبـاء وكتـاب ، وقـدرت أنـه لـو هيىء لهـذا التراث أن يظهـر لتغـير حكمنا على الأدب المملوكى .

حينئذ توثقت الصـلة بينى وبين الشيخ ابن جمـاعة ، وعقدت العـزم — بعـون الله ومشـيئته — على ان أكتب دراسـة عن تراث ابن جمـاعة الأدبى . وأخترت أن يكـون موضوعها :

(القـاضى بـدر الدين ابن جمـاعة وتراثـه الأدبى)

وعقـدت هـذا البحث فى ثلاثة فصـول ، وخاتمـة ، تسبقهما هـذه المقـدمة .

* الفصـل الأول : جعلته بعنـوان : (ابن جمـاعة وعصره) قدمت لـه بتمهيد عن أوضـاع العـالم الاسلامى وقـت اشتهار أسـرة جمـاعة .. ثـم قسمت الدراسة فيـه الى قسمين : تحدثت فى أولهمـا عن : البيئـة التى نشـأ فيهـا ابن جمـاعة متنـاولا : آل جمـاعة ونسـبهم وأشـهر أعلامهم ، موطنهم حمـاة ومكانتها فى ذلك الوقت — مولد القـاضى بـدر الدين ونشـأته ، وأسـرته الخاصة ، أساتذته ، أعمـاله ، مؤلفاته حتى الوفـاة .. وفى القسم الثـانى تحدثت عن الأحـوال السياسية والاجتماعية ، والعلمية ، والثقافية ، والأدبية فى عصـره ، لمـا لذلك كلـه من أثـر فى تكوين شخصيته بصـفة عـامة وفى أدبـه على وجـه الخصوص .

* الفصل الثـانى : جعلته بعنوان (التراث الأدبى لابن جماعة)

قدمت لـه بتمهيد عن الأدب فى العصـر المملوكى ، رسمت فيـه صـورة موجـزة وواضحة عن الفنـون الأدبية شعرية كـانت أو نثـرية ..

ثم تحـدثت عن ابن جمـاعة الأديب وانتهيت الى انطبـاق الصـفة عليـه لكونه منتجـا للأدب نثـره وشـعره ، فدرسـت الفنـون النثرية عنده ، وتحدثت عنـه كخطيب ، وككاتب ، وشفعت ذلك بالأمثلة . ثم رصـد الخصائص المميـزة لنثـره فى التعليـق عليـه .

* والفصـل الثالث جعلته لشـعر ابن جمـاعة ، فتحدثت عن : مصـادر شـعره وتوثيقها ليكون للدراسـة أسـاس تنبى عليـه ، ثم تحـدثت عن أغـراض شعره ، فتناولت منـه : الشعر العلمى ، وشـعر المناسبات ، والحـكم والوصـايا ، والمديح النبـوى ، والغـزل الروحى والتـأمل الوجـدانى ، والاعتذار ، وفى خـلال الحـديث عن الأغراض تحدثت عن ملامـح كل غـرض ومميزاته ، كمـا تناولت ملامح التجديد عنـده ، وختمت هـذا المحور بتعليق عـام على شـعره رصدت فيـه اجمـالا الملحوظات التى تكشـف عن السمات الخاصـة بشـعره .

* فى الخاتمـة ، رصـدت النتائج التا توصلت اليهـا فى هـذه الدراسـة ، وسجلت المقترحات التى رأيت أنهـا تضـيف جـديدا لدراسـة هـذا العصـر لـو تمـت الاستجابة لهـا .

وأخـيراً ، عسى أن أكـون قـد وفقت لرسـم صـورة لهذه

الشخصية المتعددة المواهب ، وأن أكون قد جلوت الجانب الأدبى عنده ، وأن أكون قد أضفت جديدا — بهذا البحث — فى ميدان الدراسات الأدبية .. فان كان ذلك فعلا ، فهو ما رجوته ، مبتغيا الجزاء من الله رب العالمين ، وهو حسبى ونعم الوكيل ..

د. عبد القادر رزق الطويل
مدرس الأدب والنقد بالكلية

القاهرة — سراى القبة فى ١٩٩٣/١٢/٣٠ م

الفصـــــل الأول

ابن جمـــــاعة وعصـــــره

تمهيـــــد

منيت الدولـــة الاسلامية وقت أن كانت تمثلهـا سياسياً الدولة العباسية فى عصرها الثـانى بالتفكك والانقسـام ، وتقطيع أوصالها فى كيانات صغيرة عرفت باسـم « الدويلات » ، نتيجـة للصراعات ، والعصبيات التى أطـلت ، واستبدت بهـا الأهـواء فصارت بهـا الى ما آلت اليـه •

فى تلك الفتـرة التى شهدت سـيطرة الفاطميين ، ثم الأيوبيين على مقـدرات الأمـور فى مصـر والشـام ، كانت توجـد على واجهـة المجتمع بمدينـة (حمـاة) أشـهر مـدن اقليم الشـام ، أسـرة عربية ، عريقـة فى أصالتها وعروبتها ، يقـال لهـا : (أسرة جمـاعة) ، توالت أجيالها عبـر ثمانية قـرون ، امتدت من القـرن الخامس الى القـرن الثـانى عشـر الهجـرى •

وحقـاً لـم تكن هـذه الأسـرة ذات أثـر بالغ فى المقدرات السياسية ، ولكن المؤكـد أنـه كانت لأعلامها بصمات حضـارية ، وعلميـة ، ومشاركات فى ادارة بعض الشـئون فى الدولة الموحـدة بين مصـر والشـام ، وايجابيات ضـد الصليبيين والتتـار •

وكـان من بين أعلامها ، ومن أفاضل علمائها وأدبائها القاضى

(بـدر الدين بن جمـاعة) الذى نعـالج فى هـذا البحث جانباً من نتـاجه الفكرى ، وهـو جـانب (تراثـه الأدبى) .

وسيكون حديثنـا فى هـذا الفصـل مقصـورا على جـوانب ثلاثـة :

أولهـا : عصـر ابن جماعة وتأثـيره فى توجهاته الأدبيـة .

وثانيهـا : البيئـة التى نشـأ فيهـا ابن جمـاعة .

وثالثهـا : حيـاته .

* * *

أولا ـ عصـر ابن جمـاعة

٦٣٩ هـ ١٢٤١ م ـ ٧٣٣ هـ ١٣٣٣ م

تقتضى الدراسة العلميـة ـ وفـق مناهج البحث الحديثة ـ أن يلـم البـاحث فى نتـاج أديب من الأدبـاء بظروف العصـر الذى عـاش فيـه ، متنـاولا جميـع المؤثرات العامة والخاصة .. سياسية كانت ، أو اجتماعية ، أو ثقافية أثرت فيـه وانطبعت فى وجـدانه ، لأن الأديب يتـأثر فى حيـاته وطريقة تفكيره ، ومزاجـه بظـروف مجتمعـة وأحـداث عصـره ، وبالتـالى فـان ذلك كله يلون أدبـه ويوجهه وجهـة معينة ، ويكون روافد تمـده بالأفكار ، وتوجهـه الى طريقـة التعبـير ، ومنهـج الأداء .

وابن جمـاعة عـاصر فتـرة من أدق وأحـرج الفتـرات فى تاريخ الأمة الاسـلامية كلها ، والمنطقة العربية على وجـه الخصوص ،

وهى الفترة الأخيرة من حياة الدولة الأيوبية ، وقيام الدولة المملوكية على أنقاضها ، وما صاحب ذلك من صراعات وأحداث عصفت بالخلافة فى بغداد ، وانتقالها الى مصر المملوكية ، على نحو ما سنفصله فيما بعد ، مركزين أيضا على الجوانب الاجتماعية ، والثقافية ، والعلمية مبرزين أثر ذلك كله فى النتاج الأدبى عموما ، وعند ابن جماعة على وجه الخصوص .

الحياة السياسية والاجتماعية

كان العالم الاسلامى وقت ميلاد « ابن جماعة » قد انقسم الى دويلات متناحرة ، وضعف شأن الخلافة العباسية فى بغداد ، وتعرض لاجتياح عواصف ثلاث(١) :

الأولى : ممثلة فى التتار ، وهى قوة مدمرة لا دين لها الا سفك الدماء .

الثانية : قوة حاقدة ممثلة فى الصليبيين الذين عدوا الاسلام عدوهم الأول .

الثالثة : قوة داخلية ممثلة فى الصراعات الدائرة بين حكام المسلمين أنفسهم غير مكترثين بالأخطار المحيطة بهم .

وقد رأى فى بداية عمره أثر هذه المخاطر فى انفصام عرى الوحدة الاسلامية بين مصر والشام عقب وفاة

---

١ — د. عبد الجواد خلف — ابن جماعة السابق ص ٩٧ وما بعدها. وابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ج ٧ ، وتيمية محمود رزق سليم فى عصر سلاطين المماليك ج ١ .

« صلاح الدين الأيوبى » الذى لم يخلفه من بنى أيوب حاكم فى قوته يحمى الدولة الأيوبية من الانهيار ، مما دعا « الملك الصالح نجم الدين أيوب » ملك مصر الى الاكثار من شراء المماليك ليستعين بهم على مناوئيه ، وينشأهم تنشئة عسكرية ، وأسكنهم الروضة ، فسموا « بالمماليك البحرية » .

وقد زاد خطرهم على ملك بنى أيوب حين اتخذ « الصالح » منهم خاصة جنده ، وولاهم قيادة الجيش والامارات ، فما لبثوا أن استبدوا بالحكم وقضوا على الدولة الأيوبية ، وأسسوا ما عرف فى التاريخ « دولة المماليك » .

واشتهر منهم : عز الدين أيبك ، وأقطاى ، وقطز ، وبيبرس ، وقلاوون ، والأشرف خليل ، والناصر محمد ، وهم الذين عاصرهم (ابن جماعة) من المماليك البحرية حتى توفى سنة ٧٣٣ هـ(٢) .

ومع ما صار لهم من القوة ، وازدياد النفوذ ، الا أنهم رأوا اضفاء الشرعية الدينية على حكمهم ، فعملوا على احياء الخلافة العباسية فى مصر ، واستقدموا أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله (الذى كان سجينا فى دمشق بعد أن قتل التتار الخليفة المستعصم بالله سنة ٦٥٦ هـ وأزالوا الخلافة العباسية لمدة ثلاث سنوات تقريبا) واستقبله « السلطان بيبرس » استقبالا حافلا ،

---

٢ - راجع : تاريخ العرب المطول لفيليب حتى ج ٢ ص٧٩٣ ، دولة المماليك فى مصر للسير وليم موير ص ٣٤ ، المماليك لأنور زقلمة ص ١٨ ، التاريخ الاسلامى د. احمد شلبى ج ٥ ص ١٧٩ .

وبايعه بالخلافة ، كما بايعه العلماء والقضاة والأعيان ولقبوه المستنصر بالله سنة ٦٥٩ هـ ، واستمد منه (بيبرس البندقدارى) سلطته ، وبذا آلت الخلافة الى مصر ، وبسط المماليك نفوذهم على مصر والشام والحجاز وغيرهما (٣) .

* * *

وترتب على ذلك أن التكوين الاجتماعى — عصر ابن جماعة ٦٣٩ — ٧٣٣ هـ — للدولة المصرية الممتدة كان مزيجا من العرب ، والترك ، وبقايا المغول فضلا عن المصريين والشاميين .

فاذا بحثنا عن التكوين الطبقى للمجتمع رأيناه يتمثل فى ثلاث طبقات :

١ — الحكام ، ويتمثلون فى سلاطين المماليك ، وهؤلاء استأثروا بكل شىء فى الدولة ، وتمتعوا بخيراتها ، وقسموا ممتلكاتها لقطاعات بينهم ، وكانوا فى غالب أمرهم طبقة مستبدة مترفعة عن الشعب ، كثيرة المساوىء مثيرة للفتن والحروب الداخلية ، والاسراف فى جمع المال ، وارهاق الشعب بالضرائب الفادحة ، وحرمانه من الجندية والخدمات الحيوية .

٢ — العلماء ، وكانوا — باعتبار مكانتهم الدينية — يلون سلاطين المماليك ، وكان هؤلاء يجلونهم ويقفون احتراما لهم ، ويصادقونهم ، ويستشيرونهم ويأخذون برأيهم لاضفاء مسحة

---

٣ — حسن المحاضرة للسيوطى جـ ١ ص ٤٩/٥٠ ، البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ٢٣١ .

الدين على حكمهم(٤) ومعهم فى المنزلة القضاة ، ويتبع العلماء المدرسون ، ويتبع القضاة نوابهم فى الأقاليم .

وقد برز فى هذا العصر منهم طائفة من ذوى السمعة الطيبة ، والوقوف مع الحق ، منهم : ابن دقيق العيد ، والقزوينى ، والسبكيان ، والعز بن عبد السلام ، والنواوى ، وابن تيمية ، وابن جماعة(٥) .

٣ ـ عامة الشعب ، بطوائفه المختلفة ، وكانوا جميعا على حد سواء فى التعرض لجور حكامه المماليك وعسفهم ، لكن الفلاحين كانوا أعظم الطبقات تعرضا للظلم ، ولم يكن لهؤلاء جميعا من يدفع عنهم ويقف بجوارهم غير العلماء المخلصين الذين لم يخافوا فى الله ظالما ولا جبارا(٦) .

* * *

ولكن برغم ما نسب الى عصر المماليك من مساوىء ومظالم ، الا أن المؤرخين لم ينسوا أن يذكروا لهم الكثير من الحسنات ، والفضائل :

فهم فى جملتهم كانوا ذوى حماسة للاسلام ، زادة عن بلاده

---

٤ ـ راجع : ابن تيمية حياته وعصره ، للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٤٣ ـ ١٥٠ .

٥ ـ راجع : التربية عبر التاريخ ـ د. عبد الله عبد الدايم ص ١٦٩ .

٦ ـ راجع : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ١٠٨ ـ تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٤٠٨ .

ضد التتار والصليبيين ، كما أنهم غزوا باسم مصر ورفعوا لواءها عاليا على البلدان المجاورة ، وتركوا القضاء بين طبقات الشعب لقضاة الشرع ، وأكثروا من فتح المساجد للعبادة والتعليم ، وأعانوا على بعث علوم الدين ، ورحبوا بالوافدين الى مصر للتعلم أو التجارة (٧) ، مما عاد على الحركة العلمية والأدبية بالازدهار (على نحو سنشير اليه بعد) .

الحياة العلمية والثقافية والأدبية

نشطت الحركة العلمية — هذا العصر — فى القاهرة ، وسائر المدن المصرية ، وامتدت حتى شملت كثيرا من العواصم الاسلامية والعربية المنضوية تحت لواء المماليك ، وزخر العصر بالعديد من أسماء العلماء ، وكثرت المؤلفات فى شتى العلوم والفنون ، الى الحد الذى نستطيع أن نقول : انه عصر تميز بكثرة العلم ووفرة العلماء ، وان كانت فى أغلبها متجهة نحو الدين .

ويرجع الباحثون أسباب النشاط العلمى للاسباب الآتية :

١ — سقوط كثير من البلاد فى يد التتار ، فلم يجدوا أقوى من سلطان المماليك فى مصر ، الذى نصبوا أنفسهم حماة مدافعين عن الدين ، حاملين أمانة الدفاع عن تراث الاسلام .

٢ — قتل العلماء والأدباء واتلاف الكتب ، فهاجر الفارون الى مصر التى احتضنتهم ورحبت بهم .

---

٧ — محمود رزق سليم . عصر السلاطين المماليك ج ١ ، ج ٦ ؛ والأدب العربى فى عصر المماليك والعثمانيين ص ٦ .

٣ ـ احياء الخلافة ـ على نحو ما رأينا ـ جعل القاهرة قلب العالم الاسلامى ، ومركز للعلوم والآداب .

٤ ـ الغيرة الدينية عند الحكام ، وتعظيم العلماء ، جعلهم يشعرون بواجبهم نحو تراثهم .

٥ ـ انشاء دور التعليم ورصد الأوقاف عليها ، وانشاء دور الكتب .

٦ ـ جعل اللغة العربية لغة رسمية ليتم تفاهم الحكام مع الشعب(٨) .

وقد أدت هذه الأسباب الى نتائج فى غاية الأهمية فى الميادين العلمية ـ بخاصة ـ والثقافية والأدبية يمكن تلخيصها فيما يأتى :

١ ـ اتساع حركة التعليم ، بافتتاح المدارس ، ورصد الأوقاف عليها ، والعناية باختيار أساتذتها ، فراجت سوقه ، وأقبل الطلاب من كل صوب من مصر وغيرها .

وقد تميز منه وقتئذ نوعان : عسكرى ، وقد كان مقصورا على طبقة المماليك ، وشعبى ، لجميع طبقات الشعب ، يبدأ بحفظ القرآن ، ثم سائر العلوم حتى يصل الى الدراسة العالية فى المساجد .

---

٨ ـ محمود رزق سليم ـ المصدر السابق ، الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ج ١ .

٢ - كثرة العلماء والأدباء الذين زخر بهم العصر ، متخصصين فى جميع فروع العلوم والمعارف : فى التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والتاريخ ، والطب ، والمنطق والأصول ، وكان للأدب مجال فسيح لكنه يلى مجالات العلوم ، وان كان النثر أسعد حظا من الشعر .

٣ - انتعاش حركة التأليف ، الذى بقى أثراً صالحاً للوصل بين الماضى والحاضر ، اذ أقبل العلماء والأدباء على التدوين فى مختلف العلوم والأداب ، وتحصل لنا كم زاخر من المصنفات التى كانت عمادا لدفع الحركة الأدبية والعلمية بعد ذلك أشواطا مازلنا نجنى ثمارها (٩) .

* * *

وقد أدى اتساع نشاط الحركة العلمية فى ذلك العصر الى ازدياد رقعة الثقافة بين طبقات المجتمع ، مما دفع الاتجاهات الأدبية الى التعبير عن نفسها فظهر العديد من الكتاب والشعراء ، ولمع من بينهم : البوصيرى ، والشاب الظريف ، وابن عبد الظاهر ، وابن نباتة ، وابن حجة الحموى والقاضى بدر الدين ابن جماعة الذى نخص هذا البحث لدراسة أدبه .

---

٩ - محمود رزق سليم - الأدب العربى - السابق ص ١٤ - ٢٠ .

ثانيـا : البيئـة التى نشـأ ميهـا ابن جمـاعة

(أ) آل جمـاعة ونسـبهم :

(آل جماعة) الذين ينتهى اليهـم نسب (القاضى بدر الدين) الذى عقـدنا هـذا البحث لدراسة تراثـه الأدبى ينتمون الى أسرة عربية حمـوية عريقة ، قدمت للمجتمع الاسلامى على مـدى ثمانية قرون (من الخامس الى الثانى عشر الهجرى) العديد من الشخصيات اللامعـة ، والعلمـاء الأفـذاذ الذين كان لهـم الأثـر البـالغ فى حيـاة الأمـة فكريا ، واجتماعيا ، وسياسياً ، وحضاريا . وكـان لهـم الدور الفعـال فى سـير حـركة التـاريخ .

ولعـل السبب فى اشتهارهم بهـذه التسمية هـو أن ثلاثـة من الآبـاء والجـدود كـل واحـد منهـم اسمه « جمـاعة » ، « الا أن أيـاً منهـم ليس لـه فى التاريخ شـأن يذكر بـه سوى أنـه جـد لبـاقة مرموقة من العلمـاء والمفكرين ، والخطبـاء ، والحكام ، كان لهـم فى التاريخ ذكـر ونبـاهة »(١) .

وقـد أفاضت المصـادر التاريخية فى ذكـر نسبهم ، عـلى اختلاف بينهـا فى الوصول بسلسلة النسـب الى جماعة الأول ، أو الاقتصار فيهـا عند جـد قريب أو متوسط(٢) .

---

١ ـ د. عبد الجـواد خلف ـ القـاضى بدر الدين بن جمـاعة ـ حيـاته وآثـاره ص ٢٥ ط. دار الفـد العـربى ، سلسلة منشورات جامعـة الدراسات الاسلامية بباكسـتان .

٢ ـ من الذين وقفـوا عند جمـاعة القـريب : اليافعى فى مـرآة الجنـان ، والسيوطى فى حسـن المحـاضرة ، وتبعهـم دائـرة المعارف الاسـلامية لفشتك ، وعند المتوسط : صـلاح الصـفدى فى الوافى بالوفيات ج ٢ ، ونكت الهميان ص ٢٣٥ .

غير أن القاضي (مجير الدين الحنبلي) المعاصر لكثير من علمائها يكاد يكون هو المتفرد بذكر نسبهم كاملا الى مالك ابن كنانة ، فيقول عند ترجمته لوالد القاضي بدر الدين :

« برهان الدين أبو اسحق ابراهيم بن أبى الفضل سعد الله ابن جماعة بن حازم بن صخر بن عبد الله بن جماعة الكنانى الحموى المولد ، الشافعى ، من ولد مالك(٣) ، بن كنانة »(٤) .

ولقد كان لأبناء هذه الأسرة اسهامات وبصمات واضحة ومؤثرة فى الحياة الثقافية ، علمية ، وتعليمية ، وتوجيهية ، وكان لبعضهم دور لا ينسى فى رد غائلة المعتدين من التتار والمغول والصليبيين ، والهاب حماس الجماهير والحكام للتصدى لجهاد العدو ودحره .

الا أن الدور الأعظم ، والأكثر تأثيرا فى حركة المجتمع هو دورهم العلمى والتعليمى ، فقد اشتهر من بين علمائها ما يزيد على أربعين عالما ، كلهم عرفوا بابن جماعة ، كما خلفوا المئات من المؤلفات فى مختلف العلوم والفنون : شرعية ، ولغوية ،

---

٣ ــ مالك بن كنانة بطن من كنانة العدنانية ، وهم بنو مالك ابن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان ، ومن كنانة قريش وعبد مناة ، وبنو الليث بن بكر (راجع : جمهرة انساب العرب لابن حزم ص ١٨٧ ــ معجم القبائل العربية القديمة والحديثة ، لعمر كحالة ج ٣ ص ١٩٣ ، تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٣٢٠ ، نهاية الأدب للنويرى ج ٢ ص ٣٥٠) .

٤ ــ راجع : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ج ٢ ص ٤٩٣ . ومعجم قبائل العرب لكحالة السابق .

وأدبيـــة ، وكـذلك فى الخطـابة والتـاريخ ، وتعـدوا ذلك الى العلوم الحديثة ، وعلوم الهيئة والحـرب ، وصناعة الاسطرلاب(٥) .

ويدل على قيمتهم العلمية ـ أيضـا ـ أن رسـالة العلم لـم تقتصر على رجالهم ، بـل اشتهر من بين نسائهم عالمات فاضـلات تخـرج على أيديهن الجـم الغفـير من مشاهير علماء الاسلام ، مثـال : زينب(٦) ، وشـهدة(٧) ، وعائشـة(٨) ، وسـارة(٩) ، بنات جمـاعة .

أضـف،الى ذلك ، ممـا يدل على أصالتهم العربية ، وعـراقة

---

٥ ـ راجـع شـذرات الذهب فى اخبـار من ذهب لابن العمـاد الحنبـلى جـ ٧ ص ١٣٩ ، ودائـرة معـارف البستانى جـ ١ ص ٥٠٢ ـ ٥٠٤ بتصرف . والاسطرلاب : آلـة كـروية لمعـرفة سـمت القبـلة واحـوال الكواكب ، واول من وصفها بطليموس ، وفى الاسلام ابراهيم ابن حبيب الفـزارى .

٦ ـ زينب بنت جمـاعة « سمعت من جدهـا ، وحـدث عنهـا ابـو حـامد بن ظهـيرة بمـكة ، وهى من الذين اجـازوا المقريزى فى الروايـة ـ الدرر الكامنة لابن حجـر جـ ٢ ص ١٢٠) .

٧ ـ شـهدة ابنـة القـاضى عـز الدين ، واخت زينب السابقة ، وزوجـة قـاضى القضـاة تـاج الدين المنـاوى ت ٧٦٥ هـ ـ شـذرات الذهب فى اخبـار من ذهب ، لابن العمـاد الحنبلى جـ ٦ ص ٢٠٥ .

٨ ـ عائشـة بنت عبد الرحيـم بن محمـد توفت ٧٨٩ هـ ـ حدثت واسـتوطنت دمشـق ، وروى عنهـا ابو حـامد بن ظهـيرة بالاجـازة ـ الدرر الكامنة فى اعيـان المـائة الثامنة جـ ٢ ص ٢٣٦ هـ .

٩ ـ سـارة بنت عمـر بن عبد العـزيز توفت ٨٥٥ هـ ، تتلمـذ عليهـا السخاوى ، واشهر علمـاء عصـره الذين ترجـم لهـم ، وقال عنهـا : « نـزل اهـل مصـر بموتهـا فى الرواية درجـة » . (راجع : الضـوء اللامـع ، لاهـل القـرن التاسع جـ ١٢ ص ٥٢) .

نسبهم ما نقرؤه فى المراجع التى تحدثت عنهم قائلة : « بنو جماعة شخصيات علمية وأدبية واجتماعية ينتمون الى أسرة عريقة ذات أرومة عربية أصيلة يمتد نسبها الى مالك بن كنانة ، وقد اشتهر نسبة هذه الأسرة فى كتب التراجم الى حماة من أرض الشام ، ولكنا لا نعرف على وجه التحقيق أول من استوطن حماة من بنى جماعة ، غير أن الغالب أن استيطانهم لها يعود الى ما قبل الاسلام عندما هاجر آباؤهم الأقدمون من كنانة اليها »(١٠) .

(ب) موطن أسرة جماعة :

وعلى ذلك ، فمما لاشك فيه أن أسرة جماعة استوطنت مدينة حماة من زمن قديم ، وأن أعلامها المشهورين جميعا قد ولدوا فيها ، واستوطنوها ، فقد ولد فيها : القاضى بدر الدين (موضوع بحثنا) ووالده ، وسائر أسرته لما نقرؤه فى ترجمة أبنائها بأنها « أسرة حموية »(١١) .

ولا يهمنا — بعد ذلك — ان كانت هجرة هذه الأسرة العربية الكنانية قبل الاسلام أو بعده ، وانما المهم أنهم هاجروا اليها ، واشتهر أفرادها على مدى ثمانية قرون منتسبين اليها ، ومعروفين بكنانيتهم وحمويتهم بدون جدال .

---

١٠ — محمد كرد على — خطط الشام ج ١ ص ٦٠ — ٦٥ .

١١ — راجع : البداية والنهاية ، لابن كثير ج ١٣ ص ٢٧٣ ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م .

ولكن الأهم أن تعرف شيئا عن هذه المدينة التى أخرجت للتاريخ « أسرة جماعة » .

يقول ياقوت الحموى (وهو من المعاصرين لبدر الدين ابن جماعة) فى وصف مدينة (حماة) : « مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات ، رخيصة الأسعار ، واسعة الرقعة ، حفلة الأسواق ، يحيط بها سور محكم ، وفى طرفها قلعة عظيمة عجيبة فى حصنها ، واتقان عمارتها »(١٢) .

ويذكر الخانجى فى المستدرك على معجم ياقوت عن سورها هذا « بأنه اشتهر قديما بهذه العبارة التى تقرأ طردا وعكسا وهى : (سورة حماة بربها محروس) »(١٣) .

ويستمر فى وصفها فيقول : « بها عدة أسواق ظريفة ، وجوامع منظمة ، وحمامات مشهورة ، وهى كثيرة البساتين والكروم ، أرضها فى غاية الخصابة ، كثيرة المزروعات ، كثيرة الخضروات والفواكه غزيرة المياه ، يرويها نهر العاصى الشهير بما عليه من نواعير ، نشيطة التجارة ، وصناعتها فى المنسوجات القطنية والحريرية فى غاية التقدم »(١٤) .

---

١٢ — معجم البلدان — ياقوت الحموى ج ٣ ص ٢٣٥ مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م .

١٣ — منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان ، لمحمد امين الخانجى ج ٢ ص ١٧٧ — ١٧٨ مطبعة السعادة ١٩٠٧ م .

١٤ — راجع : الدارس فى تاريخ المدارس — حاشية ٨ ج ١ ص ٣٩٩ — لعبد القادر بن محمد النعيمى — مطبعة الترقى — دمشق ١٩٤٨ م .

ويذكر ياقوت أن موقعها يتوسط مدن الشام الشهيرة محددا المسافات بينهم(١٥) .

وكانت وقت اشتهار « آل جماعة » ، وقريبا من ولادة القاضى بدر الدين من نصيب الملك المظفر تقى الدين عمر بن أخى السلطان صلاح الدين الأيوبى هى والمعرة ومنبج وأقامية(١٦) ، كما كانت لابنة المنصور محمد من بعده ، وظل فرع الأسرة الصلاحية محتفظا بالولاية فيها رغم قضاء التتار على فروعها فى الشمال(١٧) .

ومن مجموع ما تقدم من وصفها والحديث عنها نعلم أنها كانت فى عهد القاضى بدر الدين قد بلغت من الرقى الحضارى مكانة طيبة ، فقد نفقت فيها أسواق التجارة ، والصناعة ، والزراعة ، وسائر مظاهر التقدم والحضارة ، كما كان بها عدد من المدارس الكبيرة من أشهرها المدرسة التى بناها الملك المظفر ابن شاهنشاه ، حيث يقول ابن كثير « وله بحماة مدرسة هائلة » ، وكذلك المدرسة التى بناها زين الدين الحموى كما يقول اليونيتى فى مرآة الجنان ، وكل ذلك ساعد على نفوق أسواق العلم والأدب ، ورواجهما وانتشارهما ، فهما — بداهة — أساس رواج الحضارة والعمران .

ولموقعها الحضارى ، ومكانتها العلمية ، جذبت العلماء من كافة الأصقاع ، وينتسب اليها جمهور كبير من العلماء والمفكرين

١٥، ١٦ — معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٣٥٥ .
١٧ — الدارس — للنعيمى — السابق ج ١ ص ٢١٧ .

والأدبـاء ، مثـل : ياقـوت الحموى ، وابن حجـة الحمـوى ، وتقى الدين بن رزين الحمـوى ، وأبو البركات زين الدين الحمـوى وغيرهـم .

تلك هى حمـاة موطن آل جمـاعة ، ومسقط رأس القـاضى بـدر الدين ، ولد فيهـا ، وتربى ، ونشـأ ، وترعرع وصار علمـا من أشهر أعـلام أسرته ، ومن أبـرز علمـاء الدين والدولة فى عهـده .

* * *

ثالثـا : نشـأته وحيـاته العلميـة والعمليـة

- ١ -

فى كنف هـذه الأسـرة الزاخـرة بالعلماء والأدبـاء ، وفى هـذه المدينـة الناهضة ، ولـد قـاضى القضـاة ، بـدر الدين محمد ، بن ابراهيـم ، بن سـعد الله ، بن جمـاعة (الثـالث) ، أشهر علمـاء بنى جمـاعة ، بـل أشهر عـالم حمـل هـذا الاسم فى تاريخ الحـركة الفكرية الاسلامية على الاطـلاق)(١٨) .

وكان مولده ليـلة السبت الرابـع من ربيـع الآخـر سـنة تسـع وثلاثين وستمائة (٦٣٩ هـ)(١٩) الموافق لشـهر أكتوبر سنة واحـد وأربعين ومائتين وألف (١٢٤١ م)(٢٠) . فى حمـاة موطن أبيـه ، وعائلته الكنانية .

---

١٨ ـ د. عبد الجـواد خلف ـ ابن جمـاعة السابق ص ٣٢ .

١٩ ـ البداية والنهـاية لابن كثـير جـ ٤ ص ١٦٣ ، شـذرات الذهب جـ ٦ ص ١٠٥ .

٢٠ ـ تقـويم تاريخى للهاشمى ص ١٦٠ .

وذلك باجماع المؤرخين وكتاب التراجم الذين لم يشذ أحد منهم عن ذلك لا فى مولده ، ولا فى اسمه ، ولا فى نسبه . فهو حموى مولدا ، كنانى نسبا (٢١) .

ووالده الشيخ برهان الدين ابراهيم ، بن سعد الله ، بن جماعة ، الثالث) الذى بدأت الأسرة تشتهر عنده ، قد ولد فى حماه منتصف رجب سنة ٥٩٦ هـ ، وتوفى فى بيت المقدس بكرة عيد الأضحى سنة ٦٧٥ هـ(٢٢) .

وقد أنجب الشيخ ابراهيم أربعة ذكور : اسحاق ، وعبد الرحمن ، واسماعيل ، ومحمد (بدر الدين) ، وكلهم من العلماء ، المنجبين لأشهر العلماء ، لكن الشيخ بدر الدين كان أوسعهم علما وشهرة .

— ٢ —

نشأ القاضى بدر الدين فى أحضان أسرة العلماء ، وقضى بينهم أيام طفولته وصباه وشبابه وكانت أسرته هى مدرسته الأولى التى بدأ يرضع منها أفاويق العلم مبكرا منذ بدأ يعقل نطق الألفاظ ويجيد السير على قدميه ، فحفظ القرآن الكريم حسب المنهج الذى كان سائدا فى عصره ، والذى يلزم به أقرانه ، حتى يستقيم لسانه على العربية الخالصة ، ويستقر فى عقله أكبر قدر من معانيها .

---

٢١ — مجلة معهد المخطوطات العربية جـ ٢١ ص ٣١ .
٢٢ — الأنس الجليل — السابق جـ ٢ ص ٤٩٣ .

ومما لاشك فيه أن أسرته - بعد قدرته على الاستقلال بشئون نفسه - دفعت به الى المدارس النظامية التى كانت مشهورة فى (حماه) : اذ كانت حماة فى عصره من المدن التى تشد الرحال اليها لطلب العلم(٢٣) - فدرس وتفقه فى شتى العلوم والفنون والمعارف ، ونال حظا وافرا من التاريخ والأدب والشعر بخلاف علوم الشرع .

ولم تقتصر همته فى طلب العلم على (حماة) ، بل رحل الى حلب ، ودمشق ، والقدس كما رحل الى مصر فدرس فى القاهرة ، والاسكندرية ، وقوص ، وغيرها من مدن مصر التى تلقى فيها أكثر علومه (*) .

- ٣ -

ولقد كان الطالب النجيب المطبوع (ابن جماعة) الذى رزقه الله حظا وافرا من الذكاء ، وعمق الفهم ، والقدرة والصبر على البحث والحفظ محط أنظار ، ومحل اهتمام الكثيرين من الأساتذة والشيوخ الذين تتلمذ عليهم ، وطلب العلم على أيديهم ، فتنقل عنهم ، ونهل من علمهم حتى تكونت شخصيته العلمية .

---

٢٣ - الدارس فى تاريخ المدارس السابق جـ ١ ص ٦٦ .

* - راجع طبقات الشافعية للسبكى جـ ٥ ص ٢٣٠ ، وشذرات الذهب لابن العماد جـ ١ ص ١٠٥ ، الدر الكامنة لابن حجر جـ ٣ ص ٢٨١ .

ولم تسعفنا المراجع بحصر دقيق لشيوخه ، سواء منهم من رحل اليه فى دمشق وحلب ، أو فى القاهرة ، والاسكندرية ، وقوص ، أو فى القدس ، أو اليمن ، وذلك لكثرتهم ، غير أن الذى أمكن استخلاصه من الاشارات والتنويهات التى أومأت المراجع اليها يزيد على أربعة وعشرين شيخا ، من المشهورين فى مختلف العلوم والفنون ، والذين تركوا بصمات واضحة فى تكوين شخصيته العلمية وصقلها ، نكتفى بذكر من كانت توجهاتهم اللغوية والأدبية أكثر وضوحا ، منهم : شيخ الشيوخ الانصارى(٢٤) ، وابن عزون(٢٥) ، والمعين الدمشقى(٢٦) ، وابن مالك(٢٧) الذى راجعه الشيخ ابن جماعة — مع أستاذية ابن مالك فى النحو — فى قضية الأخذ بالحديث فى الاستدلال النحوى ، وابن أبى اليسر(٢٨) ، وابن علاق(٢٩) ،

---

٢٤ — شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن منصور ، ينتهى نسبه الى قبيلة اوس ، كان أديبا شاعرا ت ٦٢٢ هـ (راجع المرآة ، والعبر) .

٢٥ — اسماعيل بن عبد القوى ، مصرى ، سمع من البوصيرى ت ٦٦٧ هـ ، (راجع الشذرات والعبر) .

٢٦ — أحمد بن على بن يوسف — دمشقى استوطن مصر وصاحب البوصيرى وسمع منه ت ٦٧٠ هـ (العبر للذهبى) .

٢٧ — محمد بن عبد الله بن مالك الطائى — صاحب التصانيف الذائعة فى اللغة والنحو ت ٦٧٢ هـ (البداية والنهاية ، تاريخ ابن الوردى) .

٢٨ — اسماعيل بن ابراهيم بن ابى اليسر شاكر بن عبد الله التنوخى الدمشقى ، كاتب منشىء — ت ٦٧٢ هـ (شذرات الذهب ج ٥) .

٢٩ — عبد الله بن عبد الواحد بن محمد بن علاق الأنصارى

وابن المتـوج(٣٠) ، وغيرهـم .

- ٤ -

وما كـاد أساتذته يجيزونه ، ويشهدون بواسع علمه ومعرفته ، ويعقدون لـه لـواء العـلم والمعرفة ، حتى ذاع صيته ، واشتهر ذكـره ، وعرفته الدولـة منذ زمـن الأشرف خليل بن قلاوون ، فوكلت اليـه أهـم الوظائف ، وأرفـع المناصب ، فولى القضاء ، والافتـاء ، والتدريس بأهـم المدارس ورئاسـة أهـم الجامعات في عهـده ، وخطـابة أشـهر المساجد في الدولـة ، وغـير ذلك من الوظـائف الرسمية التي كان لهـا أثـر واضـح في علمه وأدبـه ، وكـان في كـل ما تولاه من أعمـال ، حسن السـيرة ، محمـود السريرة مرضيا عنـه من الجميع ، محبوبا من العـامة والخاصة ، لمـا كان يتمتع بـه من رجـاحة عقـل ، وسلامة فـكر ، وأدب جـم ، وعدالة ونزاهـة ، وغـزارة عـلم ، وفيض معـرفة .

- ٥ -

ولكن هـذه المناصب على خطرهـا وخطورتها لـم تكن لتحول بين ابن جمـاعة ومهـامه العلمية ، خاصـة وأنهـا تتوقف جميعها على غـزارة العـلم وسـعة المعـرفة ، والاحاطة بمسائل العـلوم

=
المصري - تتلمذ على يـد البوصيري ت ٦٧٢ هـ (حسـن المحـاضرة للسـيوطي) .

٣٠ - محمد بن عبد الوهـاب بن المتوج - تتلمذ عليه ابن جماعة في التـاريخ ت ٧٣٠ هـ . (حسـن المحاضرة ج ١) .

حتى نجد أن ابن جماعة قد وضع كتاباً فى أصول التربية والتعليم ضمنه خبرته الطويلة فى التدريس بمدارس مصر والشام — على كثرتها — وما يجب على المعلم والمتعلم ، وادارة المدارس ، وانشائها وتنظيمها ، وسماه : « تذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم »(٣١) .

وليس هذا فحسب ، بل ان مجال التأليف والتصنيف واسع ممتد عنده ، برغم مهامه كما أشرت ، وقد أشارت المراجع الى ما يربو على الثلاثين مؤلفا فى مختلف العلوم والفنون والآداب : فى التفسير والحديث وعلومهما ، والفقه وأصوله ، والعقائد والكلام ، والتاريخ ، والنحو ، والأدب ، وعلوم الحرب والفلك .

ويهمنا هنا أن نذكر المصنفات الأدبية ، أو التى تمت بصلة الى الآداب ، مثلُ :

١ — (المقتص فى فوائد تكرار القصص) وهو تتبع دقيق لقصص القرآن الكريم ، وبيان الحكم والفوائد من تكرار قصص الأنبياء مع أممهم ، وواضح أنه فى الدراسات الأدبية (٣٢) .

٢ — (نور الروض) مختصر للروض الأنف للسهيلى ، شرح سيرة ابن هشام — فهرس معهد المخطوطات العربية بالقاهرة .

---

٣١ — طبع دائرة المعارف العثمانية بالهند سنة ١٣٥٣ هـ .

٣٢ — ذكره اسماعيل باشا فى هدية العارفين جـ ٢ ص ١٢٨ ، ويراجع كشف الظنون لحاجى خليفة جـ ١ / ١٧٩٣ .

٣ — (شـرح كافية ابن الحاجب) — راجع فهرس مخطوطات جامعـة الدول العربية ج ١ ص ٣٨٧ .

٤ — (لسـان الأدب) ذكـره السخاوى فى (الضوء اللامع) عند ترجمـة شـارحه (الأبشيطى) .

٥ — (ديوان خطب) ذكـره ابن كثـير فى البداية والنهـاية ج ١٤ ، وأشـار اليـه ابن حجـر فى الدر الكامنـة ج ٣ .

٦ — أمـا فى الشـعر فلـه : أرجـوزة الخلفـاء ، وأرجوزة القضـاة ، وديوان شـعر مبثوث فى ثنـايا المخطوطات . فى مختلف الأغراض ، تهيـأ لأحـد الاخـوة الفضلاء أن يجمعـه فى السـفر العظيم الذى كتبه عنـه بعنوان : (ابن جمـاعة : حياته وآثـاره)، وذلك بخـلاف ما جمعـه ابنـه القـاضى عـز الدين بن جمـاعة فى كتـابه « نزهـة الألبـاء فيمـا يروى من الأدبـاء » .

وهـذا كلـه يدل على غـزارة علمـه ، وسـعة اطـلاعه . ويمنحـه لقب الأديب بجـوار كونه عالمـا ، ممـا يمنـح دراسـة الجـانب الأدبى خصـوبة . ويعطى الدارس الفرصة لابـراز هـذا الجـانب لحيـز الوجـود .

— ٦ —

ومع ذلك ، فـابن جمـاعة ذلك الهـرم الشـامخ من العلوم والمعارف ، والشهرة والوجاهة ، والذى امتلك زمـام أهـم المناصب الرفيعـة فى الدولة وقـوة السلطان فيهـا ، كان جـم التواضع ،

دينـاً متمسكا بدينـه ، جمـع بين جمـال المنظـر والمخبر معـا يزينـه خلق رفيـع ، وحـلم وصـفح ، وعفـو عند المقـدرة • فقـد روى ابن حجـر أن « النصـير الحمصى » هجـاه وسـبه بمقطوعة قـال فيهـا :

قـاضى القضـاة المقـدسى
صـحب الأمـور المطـاعة

سـألته عـن أبيـه
فقـال لى : (ابن جمـاعة)

— ٧ —

وبعـد حيـاة حـافلة ، وشهرة ذائعـة ، وتقلب فى أعـلى المناصب الدينية والدنيوية التى عقـد لواؤهـا فى القضاء ورياسته ، والفتيـا والخطابة ، والتدريس ونظـام المدارس ، وافـاه الأجـل المحتـوم ليـلة الاثنين الحادى والعشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة من الهجـرة ، وقـد أكمـل أربعـا وتسعين سـنة وشهراً وأيامـاً (٣٣) ، وصلى عليه من الغـد قبـل الظهـر بالجـامع الناصرى بمصـر ، ومدفنه قريب من الامام الشافعى — رحمـه الله رحمـة واسعة •

---

٣٣ — البداية والنهـاية ، لابن كثـير جـ ١٤ ص ١٦٣ .

الفصـــــل الثـــــانى

التـــراث الأدبى النثـــرى لابن جمـــاعة

تمهيـــــد :

الأدب فى العصـــــر المـــلوكى

— ١ —

اتجـــه النشـــاط فى عصـــر المماليك الى احيـــاء العلوم أكثـــر من اتجـــاهه الى احيـــاء الآداب ، وبخاصة فى الفتـــرة التى أعقبت ســـقوط بغـــداد فى يـــد التتـــار ، وانتقال الخـــلافة الى مصـــر المملوكية ، وهى تلك الفتـــرة التى عاصرها القاضى بـــدر الدين بن جمـــاعة .

ويرجـــع ذلك الى أن حـــاجة العصـــر الى العـــلم كانت مقدمة على حاجته الى الآداب ، ولأن دواعى الاشتغال بالعـــلم كانت كثيرة ، فـــأدى ذلك الى تخلف الآداب بصـــفة عـــامة وعلى قدر متفـــاوت بين فنـــون الأدب ، اذ كان الشـــعر أكثرها تأثـــرا ، لأنـــه أدقهـــا وأكثرها احساسا ، ولاحتياجه الى التذوق والتشـــجيع .

وسأحاول أن أرســـم صـــورة موجزة عن أهـــم الفنون الأدبية فى هـــذا العصـــر ، لكنها تكون — ان شـــاء الله — واضحة ومعبرة ، تمهيـــدا للحديث عن التـــراث الأدبى لابن جمـــاعة .

— ٢ —

الخطـــابة : معلوم أن الخطـــابة تزدهـــر اذا وجدت دواعيها ، ولكن العصـــر المملوكى قـــلت فيـــه الدواعى ، لأســـباب منهـــا :

(انطـواء الشعب تحت حكم الأعاجم ، وضـياع حريته ، وزوال الحزبية السياسية بين طوائفه ، وانتقـال مقاليد السياسة لحـكامه الذين لـم يطربهم التذوق الأدبى)(١) فضعفت الخطـابة ، لضعف القـدرة عليهـا ، وقلـة المستجيب لهـا .

غـير أنـه — واحقاقا للحـق — ينبغى أن نقول : ان هنـاك بعض ألوان الخطـابة العربية الفصيحة قـد ازدهـر وانتشر فى هـذا العصـر ، لتوافـر الدوافـع اليهـا ، ومن ذلك : الخطب الدينية المنبرية ، وقـد نشـط هـذا اللون بسبب الحمية الدينيـة ، والغـيرة الاسلامية من الشعب والحكام ، والحروب مع أعـداء الاسلام من التتـار والفرنجة ، وعنـاية السلاطين بانشـاء المساجد واختيـار أفضـل العلماء وأشهرهم لولايتها .

ومنهـا ، خطب المبايعة ، وخطب الوفود ، وخطب الزواج ، وغيرهـا كثـير .

ويلاحظ على أسلوبها الجريان على النمـط البديعى ، وأنهـا كانت على جـانب عظيم من الرونق والتـأنق والجزالة ، على الرغم من تكلف البديـع ، غـير أنهـا كانت تميل الى الطـول ، وأنهـا فقدت عنصـر الارتجال ، الا عند بعض النابهين على ما يفهـم من كـلام المؤرخين لأعلام الرجـال ، يقـول الأستاذ / محمود رزق سـليم : « وقـد وجـدت الخطبة فى عصـر المماليك ، غير أنهـا

---

١ — محمود رزق سليم — الادب العـربى وتاريخه فى عصر المماليك ص ٢٢ وما بعدهـا .

فقدت ـ فى الغالب ـ عنصرا هاما من أفضل عناصرها وهو عنصر الارتجال ... الا لمحات قليلة ، كأن يقال : « كان ـ فلانا ـ خطيبا بليغا مفوها »(٢) .

من هذه اللمحات التى اشتهرت فى هذا العهد :

ـ عز الدين بن عبد السلام ٦٦١ هـ خطيب الجامع الأموى .

ـ تقى الدين بن بنت الأعز ٦٩٥ هـ ولى خطابة الجامع الأزهر ، وغيرهم .

ومنهم ابن جماعة الذى نتحدث عن خطابته فيما بعد .

- ٣ -

الكتابة : أما الكتابة فقد كانت أسعد حظاً من الخطابة ، فقد نضرت الكتابة الانشائية وأينعت وامتدت حياتها موفقة كريمة على نسق ما كانت عليه فى العصور السابقة ، وقامت بدور جليل فى تأدية حاجة الدولة ، وما تتطلبه دواوينها ، كما أدت حاجة الشعب فى شتى الشئون الحيوية .

ولعل ذلك راجع الى :

١ ـ ما طبعت عليه الكتابة العربية من كفاية ومقدرة ومرونة ، وكانت لسان الحضارة العباسية وغيرها ، وأداة العلم والأدب فيها .

---

٢ ـ محمود رزق سليم ـ عصر سلاطين المماليك المجلد ٦ قسم ٢ جـ ٣ ص ٥٨ .

٢ — عجـز الكتابة التركية — لغـة الحاكمين — عن النهوض بأعبـاء الدولـة .

٣ — أنهـا كانت الأداة الوحيدة لتفـاهم الحكام الأعاجم مع شعوبهم الاسلامية والعربيـة (٣) .

لـذا نهضت الكتابة ، واتسـع مجالها ، وقيض لهـا حيـاة رافهـة محببـة كمـا ذكـرنا .

ولا يفوتنا أن نذكر أنـه تميز منها نوعان : **الكتابة الانشائية ، أو الادبيـة** ، وهى التى كانت مدعـاة للتنافس لرقيهـا بصاحبها الى درجـة الوزارة ، وقـد أسهمت الدواوين فى خلق طبقة متميزة من هؤلاء الكتـاب ، تناولوا أغراضا كثيرة كفت الحاجة ، وخضعت فى أساليبها لطريقة القاضى الفاضل غالبـا ... **والثـانى ، العلمية** ، التى اتسعت احـاجة التدوين والتصنيف ، واستعادة العلماء لمـا فقـدته المكتبة العربية الاسلامية حين تعرضت لهمجية التتـار . وقـد بـرع فيهـا كثيرون منهـم « ابن جمـاعة » .

— ٤ —

الشـعر : وأمـا الشـعر فقـد كان أقلهـا حظـا ، لأنـه لـم تقيض لـه من وسـائل التشجيع ما كان للكتابة مثـلا . ولأن النشاط كـان متجها بالدرجة الأولى الى العـلم ، ولانصراف العناية عنـه ، والاستماع اليـه ، والاثابة عليـه . وذلك : لجهـل الشعب :

---

٣ — الأدب العـربى وتاريخه — سليم السابق ص ٢٧ ، ويراجع : الأدب فى العصـر المملوكى — الدولة الاولى لمحمد زغلول سلام .

وعاميته ، وشغله بتحصيل الرزق ، والاضطرابات والفتن التى عمت البلاد والشعر يد تاج الى استقرار ، ولبعد الحكام عن التذوق لعجمتهم ، فلم يثيبوا ويشجعوا .

لذا لم يجد الشعراء مجال القول الفسيح ، ولا بدر المال ، ولا صرر الدنانير ، ولا الحياة الناعمة التى ألفها أسلافهم وقت أن كان الخلفاء يعقدون مجالس الشعر ، ويكافئون المجيد من الشعراء .

وترتب على ذلك أن أخذ الشعراء يندبون حظهم ، ويؤسون حياتهم ، وها هو ذا (ابن نباتة) أمير شعراء عصره يشكو شظف عيشه قائلا :

لا عار فى أدبى ان لم ينل رتبا
وانما العار فى دهرى وفى بلدى

هذا كلامى ، وذا حظى ، فيا عجبا
منى لثروة لفظ وافتقار يد (٤)

وبعضهم اتجه الى الكتابة كابن حجة ، والقلقشندى ، وكثير احترف المهن سدا للحاجة ، وحفظا للرمق ، كأبى الحسين الجزار ، وسراج الدين الوراق ، ونصير الدين الحمامى ، وغيرهم « والطريف أن من هذا الصنف من اتخذ من صناعته منبعا للحكمة لشعرية ، أو الفكاهة والفخر ، فهذا أبو الحسين الجزار يقول :

---

٤ ـ محمود رزق سليم ـ السابق ص ٦١ .

كيف لا أشكر الجزارة ما عشت حفاظا ، وأرفض الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجينى وبالشعر كنت أرجو الكلابا »(٥)

* * *

ولكن مع هذا ، فحين نتصفح شعر هذا العصر يروعنا منه نماذج كثيرة جيدة العبارة ، جديدة المعانى ، دقيقة التعبير ، صادقة التصوير ، مما يدل على أن العصر لم يخل من أسباب النشاط . فمثلا كان لبعض السلاطين بصر بالشعر يحبه ويتذوقه فشجع عليه ، وقبل ذلك نرى المواهب الفطرية لدى الشعراء التى تدفعهم لقول الشعر ، أضف الى ذلك المنافسة بينهم والعلاقات الشخصية التى كانت وسيلة لقرض الشعر ، وغير ذلك .

ولذلك نراهم قد قالوا الشعر فى أغراض عدة ، فاتسع نطاقه ، وولجوا منه كل باب ، ومن أشهر أغراضهم : المدح ، والوصف ، والمديح النبوى ، الفخر والحماسة ، الغزل ، الخمريات ، الرثاء ، النقد الاجتماعى . وقد عد الأستاذ محمود رزق سليم منها اجمالا : التهنئة والتعزية ، الألغاز والأحاجى ، الحنين والشوق ، العتاب والشكوى ، الفكاهة والمجون ، نظم العلوم والفنون ، الزهد والتصوف ، النصيحة والمثل والحكمة (٦) ، وكان بعضها أكثر استئثارا بجهود بعض الشعراء من بعض .

---

٥ ــ رزق سليم ــ السابق ص ٦١ .
٦ ــ المصدر السابق ص ٧٦ .

وقد غلبت على أساليبه السهولة ، والبعد عن الغريب ، مع اصطناع البديع والتفنن فى أنواعه ، والميل الى النكتة واستعمال الكلمات العامية ، والخضوع للضرورات الشعرية ، مع قرب فى المعانى ، وتكرارها ... الخ(٧) .

* * *

هذه كانت صورة مجملة عن الأدب بفنونه — فى العصر المملوكى — فماذا كان حظ صاحبنا القاضى بدر الدين بن جماعة منها ، ذلك ما سنوضحه فى المقال التالى .

ابن جماعة أديبا

من تتبعنا لمدلول كلمة (أدب) ، وتطورها منذ العصر الجاهلى نجد أن الكلمة أخذت منذ أواسط القرن الماضى تدل على معنيين :

« عام ، ويراد به ، كل ما ينتجه العقل والشعور ، علما ، أو فلسفة ، أو أدبا خالصا مهما يكن موضوعه ، ومهما يكن أسلوبه .

« وخاص ، ويقصد به ، التعبير عن معنى من المعانى بحيث يكون جميلا ومؤثرا فى عواطف القارىء والسامع على نحو ما هو معروف فى صناعتى الشعر وفنون النثر »(٨) .

---

٧ — المصدر السابق ص ٧٧ ، ٨٥ .

٨ — تاريخ الأدب العربى — العصر الجاهلى . د. شوقى ضيف ص ٨ — دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠ .

وترتيبا على هـذا يكون العمـل الأدبى هـو : النتاج الفكرى لأديب مـا فى عصـر من العصور شـعرا كان هـذا النتـاج أو نثـراً .

وأن الأديب هـو : المنتـج للأدب شـعرا كـان أو نثـراً محتفـلا بهمـا .

فى ضـوء هـذا المفهوم للأدب ، وفى ضـوء الصـورة التى رسمناها لحـال الأدب فى العصـر المملوكى ، نوجـه لأنفسنا هـذا السؤال : هـل يعـد ابن جمـاعة أديبـا ؟ واذا كـان ، فتحت أى مفهوم يوضـع ؟ وأين مكانه من بين أدبـاء العصـر المملوكى ؟.

هذا ما نحاول الاجابة عليه من تتبعنا لشهادة المؤرخين للأدب ، وكتـاب التراجم الذين عـدوه واحـدا من أدبـاء عصر المماليك سـواء المتقدمون منهـم أو المتأخرون .

وسنكتفى بشهادة اثنين فقط ، أحدهما من المتقدمين ، والثانى من المتـأخرين .

فهـذا ابن العمـاد الحنبلى من المتقدمين يقـول فى ترجمته لـه : « لـه النظـم . والنثـر ، والخطب »(٩) .

ويقـول عنـه الأستاذ محمود رزق سـليم من المتأخرين فى

---

٩ ـ شـذرات الذهب فى اخبـار من ذهب ج ٦ ص ١٠٥ ، والأنس الجليـل بتاريخ القدس والخليل ، لمجـير الدين الحنبلى ج ٢ ص ٤٨ .

ترجمته لـه : « وقـد بـرع هـذا القاضى فى الفقـه ، والحديث ، والتفسـير ، والكتابة الانشائية ، ونظـم الشـعر »(١٠) .

وفى موضـع آخـر يقـول : « يعتبـر القاضى بـدر الدين ابن جمـاعة أحـد أدبـاء العصـر ومؤلفيه ، لمـا لـه من خطابة جامعـة شاملة كـان يعكف على اعدادها ، ولمـا لـه من نظم مليح ، ولمـا لـه من مؤلفات »(١١) .

ونخلص من مجموع هـذه النصوص الى نتيجة أعتبرها اجابة على هـذه التساؤلات التى أسلفتها ، وهى : أن ابن جمـاعة ـ فى ضـوء ما أسلفنا من مفهـوم الأدب والأديب ـ يعـد أديبـا أنتج الأدب بفرعيه الأساسيين ، النثـر والشـعر ، وأنـه ـ فى ضوء الصـورة التى أسلفناها لأدب العصـر المملوكى ـ يعـد أديبـاً ذا مكانة فى عصـره ، لأنـه غطى الأغراض الاساسية للأدب فوق كـونه عالمـا معروفا ، ومؤلفـا مشهورا .

* * *

وبمـا أن ابن جماعة الأديب عالج فنون الأدب نثـرا وشعرا ، وعـالج النثـر خطابة وكتابة ، فسأتناول فى دراستى هـذه الفنون الأدبيـة التى أشارت اليهـا المراجع التى تحدثت عنـه ، مبتدئا بالفنـون النثـرية .

---

١٠ ـ عصـر سلاطين المماليك للأستاذ محمود رزق سـليم ج ١ قسـم ٢ ص ١٠٥ .

١١ ـ المصـدر السـابق ص ١٠٧ .

أولا : الفنـــون النثـــرية

النثـر كمـا رصدناه فى النتاج الأدبى لابن جمـاعة ، ينحصر فى : الخطـابة والكتابة ، وسنعالج كل واحـد على حـدة مبتدئين بالخطـابة :

١ ـ الخطـــابة :

أشرنا فى حديثنا عن الخطابة فى العصـر المملوكى ؛ الى ما قاله الأستاذ محمـود رزق سليم عن الخطـابة وأحوال الخطبـاء ، اذ قـال : « وقـد وجـدت الخطبة فى عصـر المماليك غـير أنهـا فقـدت ـ فى الغـالب ـ عنصرا هـاماً من أفضـل عناصرها ، وهـو عنصـر الارتجـال . فـلم نجـد فيمـا قـرأنا من تراجم علمـاء العصـر وخطبائه ونابهيه ما يـدل على احسان الارتجال ـ باستثناء المناظرات ـ الا لمحـات قليـلة لا تعـاون على اصدار حـكم حاسـم ، كـأن يقـال : كـان ـ فـلان ـ خطيبا ، بليغا ، مفوهـاً »(١٣) .

وأقـول : ان ابن جماعة يتدرج ضمن هـذه اللمحات القليلة ، فقـد عرفنـاه خطيبا بليغـا مفوهـاً . بدليـل :

(أ) ما وقفت عليـه فى المصـادر التى تحدثت عنه كخطيب ؛ فـابن حجـر يقـول : « كـان يخطب من انشـائه ويؤديها فى فصـاحة »(١٤) ، ويقـول ابن كثـير عنـه عندما تولى خطـابة

---

١٣ ـ عصـر سلاطين المماليك ـ السابق مجـلد ٦ قسـم ٢ ج ٣ ص ٤٨ .

١٤ ـ الدر الكامنـة ج ٣ ص ٢٨٢ .

المسجد الأموى سنة ٦٩٤ هـ : « ثم خطب من الغد وشكرت خطبته »(١٥) .

ومن عبارة اليافعى عنه : « كان خطيبا مفوها »(١٦) .

ويستفاد من هذه العبارات التقريظية لمعاصريه أنه كان أديبا خطيبا قد امتلك ناصية الخطابه ، وهذا ما أثبتناه للأستاذ (محمود سليم) ، اذ اعتبره (واحدا من أدباء العصر ، لما له من خطابة جامعة شاملة كان يعكف على اعدادها) .

(ب) بالرجوع الى الوظائف التى تقلدها (ابن جماعة) رأيت من بينها وظيفة الخطابة ، وهى من الوظائف السامية التى يتعلق التعيين فيها بأمر السلطان ، وخصوصا فى الأماكن البارزة ذات المراكز الحساسة بالنسبة الجماهير .

وصاحبنا تولى خطابة المساجد ذات الأهمية البالغة فى الدولة المملوكية فى مصر والشام ، بل أهم المساجد التاريخية فى الاسلام ، وكان يتم تعيينه فيها بأوامر سلطانية .

ففى بيت المقدس كان خطيبا للمسجد الأقصى ، مضافاً اليه القضاء .

وفى دمشق كان خطيبا المسجد الأموى بالاضافة الى القضاء .

---

١٥ ـ البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٣٩ .

١٦ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج ٤ ص ٢٨٧ .

وفى القاهرة ، تولى خطابة الجامع الأزهـر ، ومسجد السلطان الجامع بقلعة الجبـل ، والجامع الناصرى الجـديد ، بنـاه محمد ابن قـلاوون بشاطىء النيـل(١٧) .

ولـولا ما عرف عنـه من مقـدرة خطابية ، وفصاحة ، وقدرة على الارتجـال ، واستيلاء على قلوب سامعيه ، ما أسندت اليـه خطـابة هـذه الأماكن الهـامة فى الدولـة .

(ج) فيمـا أشـارت المراجـع التى تحدثت عن مؤلفاته أن لـه كتـابا فى الخطـابة ، ألمـح اليـه ابن كثير بقـوله : « وجمع لـه خطبـا كـان يخطب بهـا فى طيب صوت فيهـا »(١٨) .

ومع أن هـذا الكتاب لـم أره ، ولـم يعثـر عليـه أحـد الباحثين فى عصرنا ، وكنت أتمنى الاطـلاع عليـه ، للاستشهاد بنصوص منـه ، واستنباط الخصائص الخطابية لصاحبنا ، لكنه على أى حـال كان موجودا ، وشاهدا على قـدرة ابن جماعة الخطابية ، بشهادة (ابن كثير) وهـو من المعاصرين لـه ، والموثوق بأخبارهم .

ولـذا فانى أقـدم اعتذارى ، عن عجزى ، وعـدم قـدرتى على اثبـات نصوص من خطابته .

وأما خصائـه الخطابية ، فسأعتمد فيها على المراجع التى تحدثت عنـه كخطيب ، والتى تستشف من طيات سطورها هـذه الملامح عن

---

١٧ ـ راجـع : البداية والنهـاية جـ ١٣ ، والأنس الجليل جـ ٢ ، وطبقـات الشـافعية للاسنوى جـ ١ .

١٨ ـ البدايـة والنهـاية جـ ١٣ ص ٣٣٩ .

خطابته ، مثل : (سلامة المنطق ، وحسن التصوير ، وقوة التعبير عن المعانى ، واقناع السامعين) .

كما نلمح أنه كان له منهجا فى الخطابة محببا الى السامعين ، يجذب القلوب اليه ، ويشد النفوس نحوه ، ينمق خطابته ، ويدبجها ، ويأخذ بمجامع القلوب ، فصيحا ، قادرا على الارتجال(١٩) .

مع ملاحظة أنه برز فى الخطابة الدينية على وجه الخصوص ، ولكنه لم يغفل الجوانب التى تتعلق بمعالجة قضايا عصره الاجتماعية ، وغيرها من القضايا .

٢ ـ الكتابة :

أما الكتابة ، وهى الجناح الثانى للنثر الفنى ، فان لابن جماعة اسهامات لا تقل فى خطرها وعظمتها عما أوتيه من حظ فى الخطابة .

واذا كان النقاد قد اعترفوا له بالقدرة على الاقناع والامتاع ، وامتلاك جماهير المستمعين ، فان الباحث فى كتابته ، والمطلع على كتبه ومصنفاته سيشهد له حتما بامتلاك ناصية البيان ، وسعة معارفه ، وجذب اهتمام القارىء لما يثيره فى كتابته من قضايا ، وما يضيفه من معلومات تغيب عن الكثيرين من أعيان عصره .

---

١٩ ـ يراجع صفحات : ٢١٥ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ من (ابن جماعة ـ حياته وآثاره) للدكتور عبد الجواد خلف .

ونظرة فاحصة الى ما ذكره المترجمون له من مصنفات ومدونات تربو على الأربعين كتاباً ، فى الفقه ، والحديث ، والتفسير ، والأدب ، والسياسة ، والاجتماع ، والتربية ، والادارة تريك صدق ما قلنا ، وتتفك على كاتب فكرة يبحث عن شواردها ، ويستخرج من لآلئها ، ويغوص للوصول الى ما خفى من دررها ، وما لم يتنبه علماء عصره الى معرفتها الا بعد اصطيادها .

ناهيك عن أنه كأن كاتبا منشئا يدبج العبارة فى سلاسة ، وسيولة وعمق حين يكتب فى القضايا العامة التى يحاول جمع مسائلها ، وبسط الحديث فيها .

وما تزال كتاباته فى الفنون التى كتب فيها بين أيدينا تمدنا بنماذج عديدة لخصائص نثره ، ومنهجه فى الكتابة .

واليك طائفة من نماذج كتابته فى موضوعات مختلفة :

١ ــ من مقدمات كتبه :

(أ) يقول فى مقدمة (غرر التبيان) ما نصه :

« هذا كتاب اختصرت فحواه ، من كتاب سبق لى فى معناه . أذكر فيه ــ ان شاء الله تعالى ــ اسم من ذكر فى القرآن العظيم بصفته ، أو لقبه ، أو كنيته ، وأنساب المشهورين من الأنبياء والمرسلين ، والملوك المذكورين ، والمعنى بالناس والمؤمنين ، اذا ورد لقوم مخصوصين ، وعدد ما أبهم

عـده ، وأمـد ما لـم يبين أمـده ، وذكرت ما وقـع فيـه من الاختلاف ، وقدمت المختـار من مواقع الخلاف ... الـخ »(٢٠) .

(ب) ويقـول فى قدمة كتـاب (السياسة الشرعية) ما نصه :

« هـذا مختصر فى جمـل الأحكام السلطانية ، ونبـذ من القواعـد الاسلامية ، وذكـر أحوال بيت المـال وجهاته ، وما يصح من عطـائه واقطاعاته ، وتقـدير عطـاء الأجنـاد ، وما يستحقه المرصدون للغـزو والجهـاد ، وذكـر اتخـاذ الأمـراء والأجناد ، وآلات القتـال من السـلاح والأعتـاد ، وكيفية الجهـاد وفضله ، ومن المخاطب بـه من أهـله ، ... ... وذكـر هـدنة المشركين ، وأحكام أهـل الذمة ودوام المستأمنين ، واستندت فيـه الى السنن والآثـار ، وأقـوال علمـاء الأمصـار .

« فهـو سهل المطالعة لتقرير فهمـه ، قـريب المراجعة لصغر حجمـه ، وقصدت فيـه غـاية الاختصـار ، مخـافة المـلل من الاكثـار »(٢١) .

٢ ـ ومن نمـاذج كتابته فى عـلم التفسير ، ما نصـه :

---

٢٠ ـ غـرر التبيان فيـم من لـم يسـم من القـرآن ـ لقـاضى القضـاة ابن جمـاعة ـ تحقيق ودراسـة بقـلم الدكتور عبد الجـواد خلف ـ منشـورات جامعـة الدراسات الاسلامية بباكستان ـ ط. الأولى سـنة ١٩٩٠ م ـ ابن قتيبـة .

٢١ ـ اللوحـة رقـم : ١ ، ٢ من مخطـوط (تحـرير الأحكام فى تدبـير أهـل الاسلام) وهـو كتاب فى : السياسـة الشرعية لابن جماعة ، محفـوظ بدار الكتب المصرية رقـم : ٢٣٨٤١ ب .

« قوله تعالى : (برب الناس ، ملك الناس ، اله الناس) بدأ برب ، ثم بملك ، ثم بإله ، ما حكمة هذا الترتيب ؟ وما فائدة اعادة الناس ظاهرا مع امكان ضميره ؟..

« جوابه : أن البارى تعالى ربى الناس بنعمه أجنة ، وأطفالا ، وشبانا ، فقال : رب الناس . فلما شبوا عرفوا أنهم عبيد لملك قاهر لهم ، وهو الله سبحانه وتعالى ، فقال : ملك الناس . فلما عرفوا وجوده وملكه سبحانه كلفوا بعبادته وأمره ونهيه وانفراده بالألوهية والعبادة فقال : اله الناس .

فرب : أخص الثلاثة ، لأنه يقال فى البارى تعالى وفى وغيره .

وملك : أعم منه وأخص من اله ، لأنه يقال ملك العراق وغيره .

واله : أعم الثلاثة ، لأنه تعالى ربهم ، وملكهم ، والههم ، ولا يشاركه غيره فى ذلك . فحصل الترقى من صفة الى صفة لما فى الوصف الثانى من التعظيم ما ليس فى الأول ، وفى الثالث ما ليس فى الثانى .

وأما تكرار الناس : فلما لشابهة رءوس الآى ، كغيرها من السور . أو لأن الأوصاف الثلاثة أتى بها عطف بيان كقولك : الفاروق أبو حفص عمر لقصد البيان . فكان التصريح بلفظ الناس أصرح فى البيان من الضمائر . وخص الناس بذلك لأنهم

غيرهم لا يدعى الربوبية ، والملك ، والألوهية ، فبين أنه الله من قد يوصف بذلك ، فغيرهم أولى بأنه الهم »(٢٢) .

٣ - ومن نماذجه الكتابية فى العقائد ، نختار هذا النص :

« ... واذا ثبت أن الله خاطبنا بلغة العرب ، وأن مالا يليق بجلاله غير مراد فنقول : اللفظ العربى المتعلق بالذات المقدسة ، والصفات العلية ، اما أن يحتمل معانى عدة أو لا يحتمل الا معنى واحدا ، فان لم يحتمل الا معنى واحدا يليق بجلال الله تعالى كالعلم تعين حمله عليه ، وان احتمل معانى لا تليق بجلاله تعالى فهذا محل الكلام بين السلف والتأويل كما تقدم ، وقد رجح قوم التأويل لوجوه :

الأول : أنا اذا كففنا الألسنة عن الخوض فيه ، ولم نتبين معناه ، فكيف تكف القلوب عن عروض الوساوس فى الشك ، وسبق الوهم الى مالا يليق به تعالى .

الثانى : أن ابتلاج الصدور بظهور المعنى والعلم به أولى من تركه بصدد عروض الوساوس والشك ، ومن ذا الذى يملك القلب مع كثرة تقلبه ؟ .

---

٢٢ - كشف المعانى فى المتشابه من المثانى ، لشيخ الاسلام ابن جماعة - تحقيق وتعليق الدكتور عبد الجواد خلف رئيس جامعة الدراسات الاسلامية بباكستان ، وهو من منشورات الجامعة - الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠ م .

الثالث : أن الاشتغال بالنظر المؤدى الى الصواب والعلم أولى من الوقوف مع الجهل مع القدرة على نفيه .

الرابع : أن السكوت عن الجواب ان اكتفى به فى حق المؤمن المسلم الموقن والعامى فلا يكتفى به فى جواب المنازع من مبتدع ، أو كافر ، أو مصمم على التشبيه أو التجسيم .

الخامس : أ السكوت مناقض لقوله تعالى : « هذا بيان **للناس . وقد جاءكم برهان من ربكم ، وشفاء لما فى الصدور . وبلسان عربى مبين . ليدبروا آياته . وليذكر أولوا الألباب . وقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . لتبين للناس ما نزل اليهم** » ونحو ذلك . والله تعالى أعلم .

« ولذلك لا تجد اية من الآيات مشتملة على ما يتوهم منه صفة المخلوقين الا مقرونة بما يشعر بالتنزيه أو تفسير المراد به . اما متقدماً أو متأخراً كقوله تعالى : « **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** »(٢٣) .

التعليق على النصوص

من استعراض النصوص التى اقتطفناها من مواضع مختلفة من كتبه ، وتختلف فى موضوعاتها ، والأفكار التى عالجتها ، نستطيع

---

٢٣ - اللوحة رقم : ٤ ، ٥ من مخطوط (ايضاح الدليل فى قطع حجج اهل التعطيل) ، لابن جماعة ، والمحفوظ بدار الكتب المصرية برقم : ٦٠٦ علم الكلام .

أن نستخلص منها الخصائص والسمات التى توفرت فى كتابة (ابن جماعة) ، ومدى توافقه مع اتجاه الكتاب فى عصره ، أو اختلافه معهم ، أو تميزه عليهم ، مما نلخصه ونشير اليه فى النقاط التالية :

١ - نلاحظ من خلال قراءتنا للنصوص التى اجتزأناها من المقدمات التى صدر بها كتبه أنها تعكس السمة الغالبة على كتابة هذا العصر ، وتنحو منحى كتابته فى التزام القافية المسجوعة ، والمحسنات الأخرى .

لكننا بادامة التأمل نراه يتميز عن كتاب عصره ، ويخالفهم فى أمرين :

أولهما : أن ابن جماعة لا يتكلف السجع مثلهم ، بل لا نكاد نلحظ أن هناك أثرا لكلام مسجوع أصلا ، لطبيعته السهلة ، وسلاسة عبارته وانسيابها ، بحيث يمكن أن نخرجه من عداد كتاب العصر المولعين بتكلف فنون البديع .

ثانيهما : مخالفته لهم فى طول المقدمات وقصرها ، فهم يطيلون المقدمات جلباً للبديعيات ، لكنه يتميز بكون مقدماته قصيرة ، هادفة ، توضح الغرض ، كمقدمة (غرر التبيان) أو تكشف عن المنهج ، كمقدمة (السياسة الشرعية) ، مما يجعلنا نحكم بأن (ابن جماعة) ليس كاتباً يعكس طريقه عصره بالضرورة ، وان ساير روحها .

ويؤيد وجهتنا ما قاله الأستاذ محمود رزق سليم فى مثل هذه الحالة :

« ليس من الضرورى أن تتضح خصائص الأدب فى عصر ما فى أدب كل أديب فيه . بل ولا فى أدب كل أديب من أدباء حلبة واحدة من حلباته ، وذلك لأن الأدباء يختلف بعضهم عن بعض باختلاف ظروف حياتهم الخاصة . وباختلاف أذواقهم وطبائعهم . وهذه الاختلافات ذات أثر بين فى تنوع خصائص كل أديب عن غيره ، والا أصبحوا جميعا نسخاً مكررة لأصل واحد »(٢٤) .

وذلك ما يقرره نقاد الأساليب الذين أجمعوا على أن الأسلوب يختلف باختلاف الموضوع ، والأديب ، والثقافة ، ومزاج الأديب ، وشخصه ... الخ(٢٥) .

٢ - حينما ندقق النظر فى هذه النصوص عامة ، وفى نصى : « كشف المعانى ، وايضاح الدليل » بصفة خاصة ، نلحظ : أن أسلوبه فى الكتابة يغلب عليه اللون العلمى المتأدب ، الذى يعالج الكتابة الفنية الخاصة بعلم من العلوم بأسلوب أدبى ، يضفى عليه ابن جماعة أهم ملامحه الشخصية ، ويلونه بميزاته الخاصة فى الكتابة : من السيولة ، والسلاسة ، وعمق الفكرة ، والقدرة على التعبير عنها ، وحسن اختيار الألفاظ

---

٢٤ - عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى م السادس ، قسم ٢ ج ٣ ص ٢٧٠ .

٢٥ - يراجع : الاسلوب ، للاستاذ احمد الشايب ، اسس النقد الأدبى عند العرب للدكتور احمد احمد بدوى ، النقد والبلاغة لهدى علام وآخرين .

المناسبة لهـا ، وجـذب انتبـاه القارىء بالتنويع ، وسـوق الأدلة الاقناعية ، لتحقيق المصداقية لدى القـارىء .

* * *

٣ ـ حينمـا يتعرض للكتـابة فى الجوانب العلميـة العقلية الصرفة المتعلقة بعـلم الكـلام ، كالنص الذى نقلنـاه من (ايضاح الدليـل) ، والذى يتعرض فيـه لآراء المذاهب الكلامية فى مسألة (الصـفات) ، ويحـاول الانتصار لرأيـه بالرجـوع الى لغـة العـرب ، نلحـظ أن (ابن جمـاعة) يعـالج القضية من خـلال نفس صريحـة سلسلة ، قـادرة على البسـط والتحليل ، فيخـرج أسلوبه عـذبا ، شـيقا ، يسهل جفـاف المـادة العلمية ، ويزيـل خشـونة المصطلحات الفنيـة ، ويأخـذ بيـد القارىء الى أقرب الطـرق فهمـا واقناعاً ، حينما يقلب لـه الفكرة فى أساليب منوعة ، سـهلة الهضـم ، مقنعـة للعقـل .

* * *

٤ ـ أمـا أفكاره فمحددة ، يسـلك فى سبيل الوصـول الى عرضها والاقنـاع بهـا خطوات مرتبة ، يسـوق معهـا الأدلـة الاقناعية من النصوص النقلية أو المسلمات العقلية ، فى أسلوب مرسل لا يخضـع لقيـود السجع الذى اشتهر بـه كتـاب عصـره ، مما يجعلـه مناسبا للكتابة العلمية الفنيـة . نلمس فيـه سهولة اللفظ لكن مع ملاءمة المعنى ، بحيث يمكن أن يتـأبى على غـيره ، ممـا يسمى بالأسلوب السهل الممتنـع .

* * *

٥ — وأخيراً ، نقرأ فى النص المنقول من (كشف المعانى) ترى نمطاً جديدا فى الكتابة ، تأثر فيه (ابن جماعة) بكتاب الاعجاز الذى بحثوا فى منابع السحر فى البيان القرآنى ، ولم كانت اللفظة أفضل من غيرها ، ولم أختيرت فى موضعها ، كالذى رأيناه عند عبد القاهر وأمثاله .

ولذا نراه يقول فى مقدمة هذا الكتاب : « ... وربما لهج بعض فضلاء الحاضرين بمسائل حسنة غريبة ، وسأل عن مناسبة ألفاظها لمعانيها العجيبة ، مما لم يذكر بعضه أو أكثره فى كتب التفسير المشهورة ، ولا ألمت به فى أسفارها المسطورة ، من اختلاف ألفاظ معان مكررة ، وتنويع عبارات فنونه المحررة ، ومن تقديم وتأخير ، وزيادة ونقصان ، وبديع وبيان ، وبسط واختصار ، وتعويض حروف بحروف أغيار »(٢٦) .

ترى نفسك — وأنت تقرأ هذا الكتاب — أمام اللمحات النقدية ، واللفتات البلاغية ، التى ضمنها (عبد القاهر الجرجانى) فى (دلائل الاعجاز ، وأسرار البلاغة) فى أسلوب سلس عذب ، ولفظ مختار ، وعبارة ناصعة البيان .

* * *

هذه صورة مجملة لنثر (ابن جماعة) خطابة ع وكتابة ، تناولناها بالتحليل والبسط ما وسعتنا القدرة ، ووانتنا المراجع ، وأسعفتنا المصادر ، وقد كشفت لنا هذه الصورة عن نتائج

---

٢٦ — كشف المعانى فى المتشابه من المثانى — المصدر السابق ص ٧٩ ، ٨٠ .

باهـرة ، وأمـور جـديدة غريبة ، وتميـز عن العصـر الذى عاش فيـه ، سـواء فى الابتكار والتجـديد ، أو اتخـاذ أسلوب غـاق بـه الجميـع .

وموعـدنا معـه (فى شـعره) لنكمـل الصـورة الأدبيـة لـه .

الفصـــــل الثـــــالث

شـــــعر ابن جمـــــاعة وخصائصـــه

١ ــ تمهيـــــد ...

انتهيت فى حديثى الســـابق ــ ابن جمـــاعة أديبـــا ــ الى أن (ابن جمـــاعة) فى ضـــوء ما ذكـــر من مفهـــوم الأدب والأديب يعـــد أديبـــا منتجـــاً للأدب : نثـــره ، وشـــعره ، ودللت على ذلك بأقـــوال المؤرخين وكتاب التراجـــم الذى كتبوا عنـــه من المتقدمين أو من المعاصرين .

وقـــد تحدثت ــ آنفـــاً ــ عن نثـــره ، وأعقد هـــذه الدراسة للحديث عن شـــعره ، موضـــحا أغراضـــه ، وخصائصه ، وأهـــم الاسهامات التى أســـهم بهـــا فى هـــذا الفـــن ، وموقفـــه كشـــاعر فيمـــا راج بين شعراء العصـــر ، ممـــا عـــرف باسم « المـــدائح النبوية » ، ومـــدى ما أحدث من تجـــديد ــ ان وجـــد ــ فى الشكل والمضـــمون .

* * *

٢ ــ مصـــادر شـــعره :

لكن وقبـــل أن أتعرض لكل ذلك بالنسبة لشـــعر (ابن جماعة) يجب أن نتعرف على المصادر التى نعتمـــد عليها فى هـــذه الدراسة ، فقـــد اعتمدنا فى دراستنا لنثـــره على المخطوطات أو المحققات من

مؤلفاته ، أمـا فى شـعره فعـلى أى شىء نعتمـد ؟! .. خصوصا وأن المؤرخين لـه لـم يذكروا لـه ديوانا مجموعـا مخطوطا أو مطبوعا يعـرف باسمه ، وانمـا أدرجـوه ـ جميعـا ـ فى عـداد شـعراء العصـر المملوكى اعتمـادا على أبيـات متفرقة رووهـا عنـه مبـاشرة ، أو عن أحـد تلاميذه .

« وممن روى عنـه البيتين ، والثلاثة ، والأربعة من تلامبذ : تـاج الدين السبكى ، وصـلاح الصفدى ، وأبو الفـدا المؤرخ ، وابن تغـرى بردى ، وابن العمـاد الحنبـلى »(٢٧) .

ولكن أهـم المصادر التى يعتمـد عليها فى التعرف على شـعره ودراسـته :

(أ) مخطـوط محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقـم (٤٠١ التيمورية) بعنوان « منتخب نزهة الألبـاء فيما يروى عن الأدباء » ألفـه القاضى (عـز الدين بن جمـاعة المتـوفى سـنة ٧٦٧ هـ) وهـو ابن القـاضى (بـدر الدين بن جمـاعة ، روى فيـه عن أبيـه طائفـة عظيمة من شـعره ، وعلى الأخص قصيدة ممتـازة فى مدح النبى ـ عليه السلام ـ يعارض فيهـا (بردة البوصيرى) . وسنفردها بدراسة خاصـة ان شـاء الله .

(ب) أرجوزتان ضمن مخطـوط بعنوان (نزهـة النظـار) ، لابن الملقن ، والمخطـوط مـودع بدار الكتب المصرية تحـت رقـم (١١٥٤٩ ج) .

---

٢٧ ـ د. عبد الجـواد خلف ، السـابق ص ٣٨٠ .

(ج) مرويات تلاميذه التى أشرنا اليها ، وننوه عنها مع الدراسة بمشيئة الله .

(د) وكانت أعظم دعامة يعتمد عليها فى دراسة شعر القاضى (بدر الدين بن جماعة) ممثلة فى ذلك الجهد الكبير الذى بذله الصديق الدكتور عبد اجواد خلف ، مدير ومؤسس جامعة الدراسات الاسلامية (كراتشى — باكستان) ، والذى جمع فيه من بطون المخطوطات كل ما استطاع جمعه من شعر الرجل ، وسجله فى كتابه الذى كتبه عنه بعنوان : (القاضى بدر الدين بن جماعة — حياته وآثاره) وقد بلغ ما جمعه فضيلته من شعر (ابن جماعة) ثلثمائة بيت ، بين قصائد ومقطعات فى أغراض متنوعة ، معزوة الى المخطوطات التى نقل منها ، مما يصلح أن يكون مصدرا وثيقا للدراسة .

* * *

وأتمنى لو وفقنى الله تعالى ، لاعادة اخراج هذا البحث — فى ظروف أوسع — متضمنا ديوان (ابن جماعة) كما روته المخطوطات ، مصنفا ، ومضبوطا ، ومحلى بدراسة تتناسب مع ما لهذا العالم الفاضل من مكانة فى نفوس العلماء والأدباء .

* * *

٣ — أغراض شعره :

وعلى ذلك نكون أمام قدر من الشعر ، قد وثقته المصادر التى نقلت من صاحبه شفاها ، قاله فى أغراض مختلفة ، يدل على

شاعرية منشئه ، ويصلح لأن يكون مجالا خصبا وكافيا للبحث والدراسة .

وقبل أن أتحدث فى موضوعات شعره أتوقف قليلا أمام أغراض الشعر المملوكى ، لنعرف ما عالجه منها ، أو توقف ، أو زاد .

وقد أشرت سابقا الى أن الأستاذ محمود رزق سليم قد حصرها فى عشرين غرضا تقريبا ، أجمل أكثرها ، وذكر ثمان مع التمثيل لها (٢٨) ، ونضيف أن الدكتور محمد زغلول سلام وهو يتحدث عن (موضوعات الشعر) ، نقل عن الابشيهى ما نصه : « ذكر الابشيهى أن الناس قسموا الشعر فى عصره (عصر الابشيهى) حسب تقدير : زكى الدين بن أبى الاصبع الى ثمانية عشر قسما ، هى : « غزل ، ووصف ، ومدح ، وعتاب ، واعتذار ، وأدب ، وزهد ، وخمريات ، ومراث ، وبشارة ، وتهان ، ووعيد ، وتحذير ، وتحريض ، وملح ، وباب يفرد للسؤال والجواب »(٢٩) .

تلك هى أغراض الشعر المملوكى ــ كما أحصاها النقاد ــ فهل قال (ابن جماعة) الشعر فى جميعها ؟ أم عالج بعض هذه الموضوعات دون بعض ؟

٢٨ــ الأدب العربى وتاريخه فى عصر المماليك من ٦٦ ــ ٧٦ ، ويراجع ص ٨٥ من هذا البحث .

٢٩ــ الأدب فى العصر المملوكى ــ الدولة الأولى ج ٢ ص ١١١ .

والواقع أن (ابن جماعة) لم يقل الشعر فى هذه الأغراض جميعها ، بل قال فى بعضها وأغفل البعض الآخر لأسباب نوضحها فيما يلى :

(أ) أن الرجل كان مكلفا بأعمال كثيرة فى : القضاء ، والتدريس ، والخطابة ، وكلها مناصب حساسة ، وتحتاج الى جهد زمنى وفكرى لاتقانها ، والوفاء بمتطلباتها .

(ب) أنه قال الشعر بوحى من عاطفته وعقله معا ، ولذا نزه نفسه عن كثير من الأغراض التى رآها غير مناسبة لمكانه ؛ لا لعجزه عن قرض الشعر فيها ، مثل : الغزل اللاهى ، والخمريات ، والهجاء ، وانما لصون نفسه عن الخوض فيها .

(جـ) أن معظم شعراء العصر المملوكى اتخذوا مع الشعر فنا آخر كالكتابة مثلا ، ومنهم من اتجه الى الحرف ليسد حاجة نفسه ، فى وقت لم يحقق الشعر عائدا ماديا على صاحبه .

(د) أن ابن جماعة كان يكفيه ما حققه من كونه : المحدث ، الفقيه مثلا ، ولذا لم يقل الشعر الا فى الأغراض التى تتوافق مع ميوله واتجاهاته فقط ، وربما جدد أغراضا أخرى لم تكن معروفة أو شائعة فى عصره .

وترتيبا على هذه التوطئة يمكن تصنيف شعره ، بحسب ما أتيح لنا الاطلاع عليه الى الأغراض الآتية :

١ ــ الشعر العلمى • ٢ ــ شعر المناسبات •

٣ ــ الحكم والوصايا • ٤ ــ المديح النبوى •

٥ ــ الغزل الروحى والتأمل الوجدانى •

٦ ــ الاعتذار (نقل فيه) •

وسنتحدث عنها تفصيلا مع التمثيل لها •

* * *

أولا : الشعر العلمى :

وهو الذى تدور فكرته حول تلخيص قواعد العلوم والفنون المختلفة فى أبيات من الشعر ، ويغلب على أوزانها بحرى الرجز والبسيط •

وقد كثر هذا اللون وشاع فى العصر المملوكى كثرة لفتت أنظار النقاد والمؤرخين للأدب ، حتى اعتبروه خاصة من خصائصه ، يقول الدكتور سلام : « وتلاحظ فى هذا العصر الشعراء المحترفين ، وشيوع النظم بين كثير من طبقات المتعلمين ، وخاصة الكتاب والقضاة والفقهاء ••• أمثال : ابن دقيق العيد ، وابن العربى ، وتقى الدين السبكى ، وتاج الدين السبكى وغيرهم »(٣٠) •

وتعد ألفيتا ابن معطى ، وابن مالك فى النحو والصرف ، وتحفة الأطفال فى علم التجويد من أشهر ما قيل من الشعر العلمى فى هذا العصر •

٣٠ــ الادب فى العصر المملوكى ــ السابق ص ١٠٨ •

وقد كان « لابن جماعة » اسهامات واضحة فى هذا المضمار ، اذ عثر الدكتور عبد الجواد على أرجوزتين نقلهما عن ابن الملقن (٣١) .

* والأرجوزة الأولى فى سرد أسماء من تولى القضاء فى الاسلام حتى تولاه هو أكثر من مرة ، يبتدؤها بقوله :

يقول راجى ربه الرحيم محمد هو ابن ابراهيم

ثم بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله يقول :

وبعد ذا فهذه الأسامى لحاكمى دمشق فى الاسلام

ويبلغ عدة أبياتها واحد وتسعين بيتا ختمها بقوله عن نفسه :

ثم دعوة لقضاء مصرا ثانية حتما فسار قهرا
ثم اعادوا بعده محمدا من بعد رده للقضا مجتهدا

* * *

* وأما الأرجوزة الثانية فهى فى ذكر من تولى الخلافة الاسلامية ، منذ قيامها عصر الراشدين . ومرورا ببنى أمية وبنى العباس حتى المستكفى بالله آخر خلفائهم ، ومطلعها :

الحمد لله الذى هدانا لملة الاسلام واجتبانا
وافضل الصلاة والتسليم على النبى المصطفى الكريم
.. ..

٣١ـ مخطوط بعنوان : « نزهة النظار » لابن الملقن ، محفوظ بدار الكتب برقم ١١٥٤٩ ج . ويراجع : ابن جماعة : حياته وآثاره للدكتور عبد الجواد ص ٣٨٣ ـ ٣٩٠ .

وبعد ذا فهذه الأسامى لخلفا ملة الاسلام
وكم اقامت مدة الامام منهم من الشهور والأعوام
اول من بويع بالخلافة صاحبه الصديق ذو المخافة

ويصل عدد أبياتها الى اثنين وسبعين بيتا ختمها بقوله :

ثم الامام الحاكم المؤيد ايام عصرنا الامام احمد
بويع فى السنين والستمائة دامت لنا أيامه ذات دعة
وقام بعده ابنه المستكفى بالله ، بالبيعة غير مخفى

هذا بخلاف أبيات متفرقة فى هذا الغرض أوردها ابنه القاضى عز الدين فى مخطوطة (نزهة الألباء فيما يروى عن الأدباء)(٣٢) .

ومنها فى عد معجزات موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، قوله :

آيات موسى الكليم التسع يجمعها بيت على اثر هذا البيت مسطور
عصى ، يد ، وجراد ، قمل ، ودم ضفادع، حجر، والبحر، والطور

ويتضح مما نقلناه أن أسلوب هذا الشعر يقابل أسلوب النثر العلمى البحت ، وليس فيه من خيال الشعر ، ولا عاطفة الشاعر شىء يذكر ، وانما حسب الشاعر منه أنه نظم الحقائق العلمية فقط ليسهل حفظها ، ويستجمع مادتها .

* * *

٣٢ـ مخطوط (نزهة الالباء فيما يروى عن الآباء) المكتبة التيمورية برقم ٤٠١ شعر .

ثانيـا : شـعر المناسـبات :

وهـو ما ينشئوه الشعراء فى المناسبات المختلفـة ، يرسـله الأصدقاء للتهنئة فى الأعيـاد والافـراح وتولى المناصب ، وقـد شـاع هـذا الغـرض فى العصـر المماوكى المملوكى اشباعا لموهبة الشـعر عند من توفـرت فيـه ، اذ لـم يجـد لهـا متنفسا ، وكـان لشاعرنا (ابن جمـاعة) اسهامات فى هـذا الغـرض ذات قيمـة وثـراء فكرى وعاطفى .

قال فضيلته بمناسبة توليه الخطابة بالمسجد الأقصى ، والأموى بدمشق ، ويبدو أنـه كـان يحب هـذه الوظيفة ـ هـذه الأبيات :

بالجامع الأقـصى وجامع جـلق ... يا لهف نفسى لو تدوم خطابتى
ما كـان اهـنى عيشنا والـذه ... فيها وذاك طراز عمرى لو بقى
الدين فيـه سـالم من هفـوة ... والرزق فـوق كفـاية المسترزق
والناس كلهـم صديق صـاحب ... داع وطالب دعـوة يترقق(٣٣)

ولكنـه مع حبـه للخطـابة ، ونشوته بتوليها خاصة فى القدس ودمشـق ومصـر ، لـم تهش نفسـه لوظيفة القضاء ، التى برم بتوليها ، رغـم تكالب النـاس عليهـا ، فنـراه يقـول فى هـذه المناسبة معبـرا عن عاطفته عنهـا ، وأنـه أجبـر على قبولها :

وليـت القضـاء ومـا اختـرته ... وكـم من حريص سعى جهـده
يـروم القضـاء ويعـنى بـه ... وربـك عن ذاك قـد صـده
ويحسـد مـن نالـه ظالمـا ... حليف هموم غـدت عنـده(٣٤)

٣٣ـ الأبيـات رواهـا الصفدى فى ترجمته لابن جماعة فى كتابيه : الوافى بالوفيات جـ ٢ ص ١٩ ، ونكت الهميـان ص ٢٣٦ .

٣٤ـ الأبيـات رواهـا القـاضى عـز الدين بن جماعة فى مخطوط (نزهـة الألبـاء) المشـار اليـه سابقا .

ويلاحظ أن هـذا اللون من شـعره أدخـل فى باب العاطفة من سابقة ، واختيـار الألفـاظ المعبـرة عنهـا ، مع صدق التعبـير عن الفـكرة • واقـرأ ان شئت قـوله يهنىء أحـد أصدقائه بحلول شـهر رمضان المبـارك :

اهنىء بشهر الصوم من لو بثثته عظيم اشتياقى رق مما اعانيه(٣٥)

* * *

ثالثـا : الحـكم والوصـايا :

هـذا الغرض قديم فى الشعر العربى منـذ العصر الجاهلى ، ويصـدر عمن لهـم خبرة وتجربة نتيجة الاحتكاك ، وطول المعاناة ، ويـدل على سعة عـلم صاحبه والمـامه الواسع بالحياة والناس ، وما يدور فيهـا من أحـداث •

(وابن جمـاعة) عـاش قـرنا ، وعاصر أحداثا ، وعـاشر ملوكـا وصعاليك ، وشـهد قيام ممالك وسقوط أخـرى ، واكتسب من وظائفه المختلفة خبـرات وتجارب ، عـلاوة على علمه الغزير ، وأفقـه الواسع ، وهـو محب لمـن حوله حريص عليهـم ، ولـذا نـراه يرسـل الحكمة ارسـالا ، تنبـع من فيض التجربة الذاتية ، فى أسلوب جـزل ، وعبـارة رصينة ، يحسن وقعهـا على الأسماع فيسهل حفظهـا ، يزود بهـا أولاده ، وتلاميذه ، ومريديه ، وهـاك نمـاذج من روائعها :

لا تطـلبن معيشـة بمـذلة فلياتينـك رزقـك المقسـوم

٣٥ـ راجـع : طبقـات الشـافعية الكبرى للسـبكى جـ ٥ ص ٢٣١ ، وابن جمـاعة للدكتور خـلف ص ٣٩٢ .

واعـلم بانك نائـل كـل الذى هـو فى الكتاب مسطر محتوم(٣٦)

ومنها ما يعبر عن سلوكه الشخصى ، ويعد دستورا لأخلاقياته ، كقـوله :

تثبت فى الأمـور ففى التـانى لك العقبى ، وكـم ندم العجول
ولا تثبت لديـك حـديث مـن لا يحقق نقـله فيمـا يقـول
وكـن متغـافلا عن كـل مـؤذ تبلغـه ، وقـل : صـبر جميل
وكـن كالبحر يحمل فى سـكون وعند الريـح بطـاش صـئول
وكـن بالعفـو موصـوفا اذا ما قـدرت فـانه وصف جميـل
تدرع بالقنـاعة فـهى أصـل اذا قعـدت بانسـان اصـول

وما أروع هـذه الحكمة النابعـة من خبـرة وتجربة عميقة :

ألا ان القناعة ثـوب عـز وذو الأطماع مذموم ذليـل(٣٧)

وما أجمـل هـذه المقابلة الدقيقة فى قـوله :

وكـن كالبحر يحمـل فى سكون وعند الريـح بطـاش صـئول

ونلحظ أن شـعره فى هـذا الغرض ينحـو تجـاه السهولة اللفظية ، بعيـدا عن الخشونة ، لا تكلف فيـه ، تجـرى الحكمـة من خـلال التجربة الذاتية العميقة ، مع صـدق الاحساس ، والرغبة فى حسـن الوصية للنـاس ، وحثهـم على التخـلق بالفضيلة .

* * *

٣٦ـ مخطـوط نزهـة الألبـاء ، لعـز الدين بن جماعة ، لوحـة رقـم ٣ .

رابعـا : المـديح النبـوى :

راج هـذا الغرض الشعرى فى عصـر المماليك رواجا ملحوظا ، حتى صـار أكثـر شيوعا ، وأوسـع انتشارا من غـيره ، ويرجع انتقـاد السـبب فى ذلك الى :

١ ــ أن العصـر كان عصـر تعصب اسلامى ، وغـيرة دينية واسـعة ، بسبب حـروب الصليبيين والتتـار ، وطمعهم فى أملاك المسلمين ، والقضـاء عليهم وعلى دينهـم .

٢ ــ أن العصـر كان عصـر ظـلم وارهاق ، واستبداد من الحـكام ، فكان على الشعب أن يلـوذ بتوسلاته الى الله أن يكشف الغمـة مستشفعا برسـول الله .

٣ ــ وهنـاك عـامل هـام ، وهـو اعجاب شعراء العصـر ببـردة البوصيرى التى وجهت المـديح النبوى وجهـة جـديدة .

تلك هى أسباب شيوع المديح النبـوى فى هـذا العصر ، واستخلاصه من النزعات السياسية ، وقصـره على الحب لرسـول اللـه (٣٨) .

* * *

وعلى ذلك رأينـا كثـيرا من الشعراء قـد اتجـه نحو هـذا الغـرض ، نذكر منهـم ــ عـدا البوصيرى ــ الذى يعتبر معـدا طـريق المدائح : الشـاب الظريف ، وابن نباتة المصرى ، وابن حجر

٣٧ــ نزهـة الالبـاء ــ السـابق ، اللوحـة ٥ ، ٦ ص ٣٩٥ ، د. عبد الجـواد السـابق .

٣٨ــ الأدب العـربى وتاريخه فى عصـر المماليك ــ محمـود رزق سـلم ص ٦٩ ، ٧٠ .

العسقلانى ، وصفى الدين الحلى ، وابن حجة الحموى ، وبدر الدين ابن جماعة .

ويعتبر هذا الغرض من أسمى ما أبدع فيه (ابن جماعة) ، لأنه صدر عن وجدان فياض بمحبة رسول الله — ﷺ — فكان ذلك مصدر الالهام الحقيقى لهذا الشعر ، الذى خرج فياضا بغير تكلف ، امتزج فيه حسن التعبير بسمو الغرض .

* * *

ومن أجمل ما عثر عليه (لابن جماعة) فى هذا الغرض قصيدته فى مدح الرسول — عليه السلام — والتى سمعها منه انشاداً ولده (عز الدين بن جماعة) وأثبتها فى كتابه (نزهة الألباء) ، بدأها بقوله :

ياسابق العيس تطوى البيد فى الظلم
سلم سلمت على سكان ذى سلم

واقر السلام على سكان كاظمة
ورامة واهيل السفح من اظم

وختمها بأعذب وأجمل ختام حين يقول :

عبيدك المرتجى منك الشفاعة يا
خير البرية ياذا الجود والكرم

قدام باب حماك الرحب معتصما
بحبل حسن الرجا يا خير معتصم

مستغفرا تائبا مما عساه جنى
فى سالف العمر فى ثوب من الندم

يسود تقبيل ارض انت ساكنها
سعيا على الراس لا سعيا على القدم
صلى عليك اله العرش ما لحظت
عين ، وما غمضت فى النور والظ .

وفيما بين البدء والختام بث شوقه الى الأماكن المقدسة ، وتحدث عن رسالة النبى عليه السلام للبشرية جمعاء ، ثم مكانته بين الرسل ، وأفاض فى مناجاة النبى الكريم ، ومعجزاته ومنها الاسراء ، وتحدث عن الحوض ، والشفاعة حتى يصل الى مسك الختام .

والقصيدة تقع فى ثلاثة وخمسين بيتا من بحر البسيط ، وقد ظلت حبيسة المخطوطات طوال ثمانية قرون حتى هيأ الله لها أن ترى النور على يد الصديق الزميل الدكتور عبد الجواد خلف ، الذى دونها كاملة فى بحثه كما وردت فى (نزهة الألباء)(٣٩) .

وأبياتها تفيض عذوبة وسلاسة ، مع الصدق فى التصوير والتعبير ، كما نلحظ فيها التماسك الفنى سواء فى اللفظ أو فى المعنى ، أو فى التركيب .

وقد تأثر (ابن جماعة) — كغيره من شعراء عصره ، بالبوصيرى(٤٠) (الذى ابتكر هذا النوع ، أو هو الذى بسطه ،

٣٩ـ القاضى بدر الدين بن جماعة حياته وآثاره ، ص ٣٩٨ وما بعدها .

٤٠ـ البوصيرى : محمد بن سعيد بن حمد بن عبد الله بن صنهاج ، كان يعانى صناعة الكتابة ، ويلى التصرف فى الشرقية ، وهو شاعر مصرى ، ظريف ، اشتهر بالمديح النبوى — توفى سنة ٦٩٥ هـ .

وأطال فيـــه القصائد)(٤١) ، أو هـــو ــ والكلام للدكتور سلام ــ : « من أبـــرز من خـــط طريق المديح النبوى ، ولـــه فى هـــذا المجال ســـبع قصـــائد »(٤٢) .

بين ابن جمـــاعة والبوصيرى فى المديح النبـــوى :

ويبـــدو تأثـــر (ابن جمـــاعة) بالبوصيرى فى هـــذه القصيدة فى : الاتفـــاق فى الوزن والقافية ، وتشابه أسماء الأماكن ، والبداية بالنسيب الموجـــه للنبى عليـــه السلام وذكـــر فضائله ، وصـــفاته ، ومعجزاته ، كمـــا هـــو الشـــأن عند كثير من الشعراء الذين تأثروا ببـــردة البوصيرى ، وعارضوها .

وهـــذه بعـــض أمثـــلة لمعارضات ابن جمـــاعة للبوصيرى فى البـــردة :

فمثـــلا : يقـــول البوصيرى فى مطـــلع البـــردة :

أمـــن تذكـــر جـــيران بـــذى ســـلم
مزجت دمعـــا جـــرى من مقـــلة بـــدم

أم هبت الريـــح من تلقـــاء كاظمـــة
واومض البرق فى الظلماء من اضـــم

٤١ــ د. زكى مبارك ــ الموازنة بين الشعراء ص ١٧٩ ، ط. الحلبى الثالثـــة ١٩٧٣ م .

٤٢ــ الأدب فى العصـــر المملوكى جـ ١ ص ٢٢٨ ، ويراجع شـــرح البـــردة ، للأستاذ فتحى عثمـــان ص ٣٨ ــ ٤١ .

ويقـــول ابن جمـــاعة فى مطـــلع قصيدته :

ياسايق العيس تطوى البيد فى الظلم
ســـلم سلمت على سكان ذى ســـلم

واقـــر الســـلام على سكان كاظمـــة
ورامـــة ، واهيـــل السفح من اظـــم

ويقـــول البوصيرى فى الحديث عن مكانة النبى ومنزلته :

فـــاق النبيين فى خـــلق وفى خـــلق
ولـــم يدانـــوه فى عـــلم ولا ـــرم

فيقـــول ابن جمـــاعة معارضا لـــه :

يا سيدا قـــد علت فى الرسل رتبتـــه
وحظـــه فيهـــم من اوفـــر القســـم

ويقـــول البوصيرى فى غضائل النبى :

وكلهـــم من رســـول الله ملتمـــس
غرفا من البحـــر او رشفا من اليـــم

فيعارضه ابن جمـــاعة بقـــوله :

يا ســـيدا فضله عـــم الأنـــام وكـــم
لـــه من ايـــاد من الاحسان كالديـــم

ويقـــول البوصيرى فى اســـراء النبى :

سريت من حـــرم ليـــلا الى حـــرم
كمـــا سرى البدر فى داج من الظـــلم

وبـــت تـــرقى الى ان نلـــت منـــزلة
من قـــاب قوسين لم تدرك ولم ترم

وقدمتك جميع الأنبياء بهـا
والرسل تقديم مخدوم على خدم

وأنت تخترق السبع الطباق بهم
فى موكب كنت فيه صاحب العلم

فيأتى ابن جماعة ويعارضه فى قصيدته بهذين البيتين :

يامن أتى القدس والسبع الطباق سرى
وفى ليلة قبل ما جلت عن الظلم

يا سيدا ام بالرسل الكرام لدى
بيت المقدس تكريما على كرم

والمتأمل فى معارضات (ابن جماعة) للبوصيرى يلمس فيها : القوة ، والقدرة ، والتماسك الفنى ، وغزارة المعنى ، وجيشان العاطفة ، لأنه اقتصر فى صلب قصيدته على المناجاة لرسول الله ، بعد المقدمة التى شملت النسيب ، والوجد ، وبث الشوق والاتيان بالمعانى المبتكرة التى لم يسبق لها حين يقول :

يود تقبيل أرض أنت ساكنها
سعيا على الرأس لاسعيا على القدم

وذلك ما يميزه عن معارضى البردة ، كابن حجة الحموى الذى قال عنه الأستاذ فتحى عثمان ساخرا : « جاء تقليده بمثابة نقطة الحبر المشلفطة التى انطبعت على ورق النشاف ، وما ذلك الا لأنه أخطأته موهبة التصوير ، واتبع طريقة التعبير ... ومع ذلك فنقاط الخلاف بين قصيدة (ابن جماعة) وقصيدة (البوصيرى) واضحة ومختلفة تماما عن جميع قصائد النهج »(٤٣) .

٤٣ـ فتحى عثمان ـ شرح بردة البوصيرى ص ٨٣ ـ ٨٤ .

ونختتم حديثنا عن العلاقة بين ابن جماعة والبوصيرى بهذه المعلومة الطريفة ، وهى : أن ابن جماعة كان أحد شيوخ البوصيرى (تلقى عنه الحديث) فى حين كان البوصيرى أسن فيه بواحد وثلاثين سنة ، لأن البوصيرى ولد ٦٠٨ هـ ، وتوفى ٦٩٥ هـ(٤٤) ، والواضح أن ابن جماعة نهل من أدب البوصيرى ، وتأثر به .

* * *

خامسا : الغزل الروحى والتأمل الوجدانى :

وقد أنشأه ابن جماعة متأثرا بما شاع فى بيئته من المديح النبوى ، وما قاله الشعراء على نمطه من المناجاة والتوسلات ، فحاول أن يخط جديدا فى هذا الفن ، فأحال الغزل من مفهومه المتوارث الى نوع من المناجاة الروحية والتأملات الوجدانية ، وخط بذلك للشعراء طريقا عرفوه ، ونهجا التزموه .

ولم تتوقف جهود (ابن جماعة) عند التجديد فى الغرض ، وانما حاول التجديد فى الشكل ، وذلك بالخروج عن البناء التقليدى للقصيدة ، والسير على منوال حركة التجديد التى هبت من الأندلس تحملها رياح الموشحات .

وتتمثل هذه المحاولة التجديدية فى مقطوعة رواها عنه (القاضى عز الدين) ، (وهى من الخماسيات) أى التى تتكون

٤٤ـ شذرات الذهب ، لابن العماد الحنبلى جـ ٥ ص ٤٣٢ .

من خمس قـواف : أربـع متشابهات والخامسة مطلقـة « ولكنهـا تراعى اذا تكررت »(٤٥) ، وهـذا نصها :

أيـا سـائق الركب الحجـازى بى رفقـا
اظـن المشـوق الصـب بعـدك لا يبقى
بخيف منى قـف ثـم بـث الذى الـقى

وقل هل يرى للمغرم الصب من ملقى
فقـد شفه طـول البعـاد وما يلقى

فحبـكم لا تسـألوا عـن نحيبـه
وسـلوا عـن حـاله مـن طبيبـه
وما حـال مشـتاق نـاى عـن حبيبـه

يحـن الى وادى الأراك وطيبـه
ويصبو الى تذكار سكانه عشـقا

تـرى عـاند شملى بسـلع وحاجـز
ووادى مـنى والمنحـنى والمشـاعر
وسـفح زرود والحبيـب مسـامرى

أمـلى بـه قلبى وسمعى وناظـرى
وارقى على ظهـر الصفا حبذا مرقى

خصـوص حـديثى فيـكم وعمـومه
ومقعـد قـلبى حبـكم ومقيمـه
وانتـم منـاه دائمـا ونعيمـه

فـلا تمنعـوا من قربكـم ما يرومـه
فاجفـانى بالدمـع من بعدكـم غرقى

٤٥ـ د. محمـد زغلول سـلام ـ الأدب فى العصر المملوكى جـ ٢ ص ١٢٥ .

تـرى عندكـم ما عنـدنا مـن تشـــوق
وما قـد عـرانا مـن جـــوى وتحـــرق
فمنـوا بوصـــل واعطفـوا بترفق

كفى ما جـرى من بعـدنا والتفـرق
فـلا مهجتى تهدا ولا دمعتى ترقـا(٤٦)

والمـلاحظ أن الشـاعر لم يخرج عن التفعيلات التقليدية لبحر الطويل ، فأين التجـديد اذن ؟ ونقـول : « ان تشطير الأبيـات ، وانقـاص البيت الأخـير واطـلاق قافيته . أمـور خارجة عمـا عـرف فى نظـم القصيد العـربى »(٤٧) .

ولابن جمـاعة أبيـات أخـرى متفرقة فى هـذا الغـرض (التـأمل الوجدانى) ، ولكنها تسـير فى شكلها على النمط التقليدى للشـعر ، ومن أمثلتـه :

احـسن الى زيـارة حـى ليـلى
وعهـدى مـن زيارتهـا قـريب

وكنت اظـن قـرب العهـد يطـفى
لهيب التـوق فـازداد اللهيـب(٤٨)

قـال الراوى عـز الدين : ان والده أنشـدها عند الخـروج من المدينة الشريفة مسلما ومودعـاً .

* * *

٤٦ـ مخطـوط نزهـة الألبـاء رقـم ٢٤٠ .
٤٧ـ ابن جمـاعة ـ السـابق ص ٤٠٦ .
٤٨ـ

سادسا : الاعتذار :

وهذا الغرض لم نجد لابن جماعة فيه غير بيتين رواهما له (أبو الفدا) فى تاريخه يقول فيهما :

لم اطلب العلم للدنيا التى ابتغيت
من المناصب او للجاه والمال
لكن متابعة الأسلاف فيه كما
كانوا ، فقدر ما قد كان من حالى(٤٩)

ونلاحظ أنه لم يعتذر عن أمر يشين صاحبه ، وانما يعتذر عن نفسه بسبب المناصب التى أولته الدولة اياها ، ويبين أنه ورث العلم كابرا عن كابر ، وأنهم جميعا عفوا عن الدنيا وأخرجوها من قلوبهم ، فأقبلت عليهم وملأت جيوبهم .

* * *

رابعا : خصائص شعره :

تلك هى الأغراض التى قال فيها الشعر مقرونة بنماذج منها ، وأعتقد أن هناك شعرا آخر (لابن جماعة) مازالت تطويه بطون مخطوطات هذا العصر التى لم يتهيأ لها الظهور حتى الآن ، ولو أنها برزت للنور لوقفنا على علم وفن عظيمين لهذا العصر ، ولربما غيرت حكمنا عليه .

ولكنها — وعلى أى حال — كافية فى الكشف عن السمات والملامح الفنية لشعر (ابن جماعة) والتى يمكن اجمالها فيما يلى :

٤٩ـ المختصر فى اخبار البشر ، لابى الفدا ج ٤ ص ١٠٨ .

١ ــ ممــا لحظناه أنــه قــال الشعر فى الأغراض التى تتلاءم مع طبيعته كعــالم متخصص فى الدراسات الدينية . والتى تتوافق مع التربية والنشــأة ، وتوجهات الأســرة ، ولذا فهــو ــ كمــا أشرنا ــ قــد هجــر الأغراض التى لا تطيقها أخلاقياته ، مثــل : الغــزل الفاحش ، والهجــاء ، والمــدح المتملق .

٢ ــ وهــو فيما يعالج من أغراض يســير على النمط التقليدى للقصــيدة ، فينظــم فى ضــوء البحور الموروثة ، ولكنه لا يلتزمها التزاما حرفيــا ، وانمــا يحاول التجــديد بالخروج على القافية ــ كمــا عرفنــا ــ وان كــان ذلك اتجاهــا واضحا ، الا أن قــدراته الفنيــة ، واستعداداته ، وتمكنــه من المعجــم اللغوى ، كل ذلك ســاعده على أن يكون رائــدا فيــه .

٣ ــ أفكاره تمتــاز بالوضوح والترتيب ، والبعد عن التعقيد ، تميــل نحــو الموضوعية والتجــديد ، تســير فى اتجــاه التقليد لشعراء العصــر ، اكن مع وضــوح شخصيته الأدبيــة ومحاولاته التجــديد فيهــا ، مع بســاطة معانيها وقربهــا ، والبعــد بهــا عن الألغــاز .

وعموما فنلحظ فى معانيه وأفكاره الغــزارة والعمق فيما يتعلق بالجــانب الوجدانى المتصــل بالمــديح النبوى ، أو التأملات ، أو الحكمة والمثــل .

٤ ــ ألفاظه وأساليبه : يتراوح أسلوبه فى شعره بين الأدبى ، فى المديح النبوى ، وبين العلمى المتأدب فى أرجوزتيه التاريخيتين ،

والعلمى البحت حينما ينظم شيئا يتعلق بالعقائد ... أى أن أسلوبه يخضع للموضوع والغرض الذى ينظم فيه ، مع ملاحظة قدرته على أن يزيل جفاف المصطلحات العلمية ، فيصبح أسلوبه رائقاً .

وعموما فهو يخلو من اصطناع البديع وتكلفه — شأن عصره — وانما تظهر عليه ملامح السلاسة ، ونصاعة العبارة ، واشراق الديباجة .

وأما الألفاظ ، فتمتاز بالسلامة اللغوية باعتباره واحدا من علماء النحو واللغة ، وهى فى عمومها دسمة بعيدة عن الابتذال ، قادرة على نقل انفعالاته وأحاسيسه الى القارىء ، كما تمتاز بملاءمتها للموضوع الذى يكتب ، ينتقيها ويختارها فى ضوء الموضوع ، والغرض ، والجملة ، والجوى النفسى .

ه — عاطفته بصفة عامة قوية ، واضحة ، فيها حرارة ، وصدق ، أمينة فى التعبير عن وجدانه ومشاعره ، ونقل ذلك كله للقارىء ، وذلك حينما يتحدث فى الجوانب التى تتميز بجيشان العاطفة ، مثل : المديح النبوى ، والغزل الروحى ، والتأمل الوجدانى ، والحكمة النابعة من خلال أحاسيسه وتجربته الذاتية .

والخيال وليد العاطفة — كما يقول النقاد — فهى التى تولد الصور الخيالية ، وهو — فى ضوء عاطفته — نرى فى تصويره جمالا فنياً ، يتلاءم مع الجو النفسى ، كما يتلاءم مع السياق ، وهو فى عمومه — بعيد عن مجرد الادراك الحسى .

* * *

تلك كانت أهم السمات التى لحظناه من دراستنا لنماذج من شعر ابن جماعة ، وعسى أن أكون قد وفقت فى رسم صورة صادقة ، وواضحة له ، والله ولى التوفيق .

الخاتمة

نتائج البحث .. المقترحات

وأخيراً ، وبعد هذه الدراسة التى استهدفت (ابن جماعة وتراثه الأدبى) واقتضت منا اطلالة على العصر المملوكى الذى عاش أديبنا أعظم عمره فى ظلاله ، يمكننا أن تخرج بالنتائج والمقترحات الآتية :

١ — ابن جماعة ، أديب منتج للأدب ، ترك وراءه تراثاً شعريا ونثريا يعتد به .. وهذه النتيجة — فى حد ذاتها — اضافة جديدة للمكتبة العربية ، اذ قد عرف واشتهر بكونه : مفسرا ، محدثا ، فقيها ، متكلما ، لكنه لم يعرف أديباً ، وان عرف خطيبا ، الا أنه لم يشتهر شاعرا .

٢ ، وابن جماعة الخطيب ، برز فى الخطابة الدينية خاصة ، ومع ذلك فقد عالج قضايا العصر من خلال خطبه ... وأنه كان فى خطابته صاحب منهج يجذب السامع ويشده اليه ، وكان فصيحا ، قادرا على الارتجال ، ينمق خطبته ويذبجها ، وذلك بشهادة المؤرخين لعصره .

٣ ــ وابن جماعة الكاتب ، له تراث خصب وغزير ، جمع فأدعى من المعارف والفنون فى عصره ، فى أسلوب شيق وممتع ، يقدر على اذابة المصطلحات العلمية بعذوبة أسلوبه ... ومع أنه يلتقى مع معاصريه فى تمثيل أسلوب العصر المعتمد على السجع والمحسنات ، الا أنه يختلف عنهم بعدم التكلف ، وأنه لا يطيل المقدمات ، مما يجعل لكتابته مذاقاً خاصة تميزه عن كتاب عصره .

٤ ــ وابن جماعة الشاعر ، لون متميز بين شعراء عصره ، وان جرى فى معظم أغراضه على نمطهم ، تجمعت له بواعث الشاعرية من : البيئة ، والثقافة ، والاستعداد الفطرى ، والذكاء ، وغزارة المعرفة ، فنضح ذلك شعرا علميا محكما ، وفنيا يذوب نضارة ، ويفيض عاطفة .

٥ ــ ولكونه شاعرا قد امتلك زمام الشاعرية ، فقد أسهم اسهامات عدها النقاد اضافة جديدة تحسب له ، اذ نراه قد جدد الأغراض مضيفا الى أغراض عصره ، الغزل الروحى والتأمل الوجدانى ، بوحى المديح النبوى ، والشعر الصوفى ، فمهد الطريق لمن بعده ... ولم يقف تجديده عند الغرض ، بل نراه يجدد فى الشكل ، وينظم مخمسات على منوال الموشحات التى هبت رياحها من الأندلس ، مما يدل على طواعية الملكة الشعرية ، والقدرة الفنية عنده .

٦ ــ أننا لم نعتمد فى دراسة شعره على ديوان مجموع ، وانما اعتمدت فى الدراسة على أبيات متفرقة أوردها

المترجمون لـه ضمن ترجماتهم لـه ، وعلى المخطوطات التى لا تزال حبيسة المكتبات ، وعلى ما جمعه الدكتور عبد الجواد خلف ضمن كتابه عنه ... ، ولذا فقد تمنيت أن تتاح لى فرصة جمع هذا التراث الشعرى ، واخراجه فى ديوان أقوم بتصنيفه ، وشرحه ، ليتاح له أن يرى النور ، وليكون موردا سهلا للدارسين ، وأن تكون هذه الدراسة التى أعددتها الآن بمثابة تقديم لهذا الديوان .

٧ ــ أثناء بحثى فى تراث ابن جماعة الأدبى وقفت على حقيقة هامة ، وهى أننا أسرفنا فى حكمنا على العصر المملوكى ، واتهامه بأنه كان عصر الضعف الأدبى ، وبخاصة الشعر ، مغفلين العلامات المضيئة من الشعراء المجيدين . ودليل اسرافنا فى الحكم هو تراث ابن جماعة نفسه ، فقصائده الرجزية (العلمية والتاريخية) مانزال حبيسة مخطوطة (ابن الملقن) ومعظم شعره الذى رواه وجمعه ابنه القاضى (عز الدين) لم يزل رهن مخطوطته (نزهة الألباء) التى لم تر النور بعد .

ولو أننا بذلنا بعض الجهد فى الكشف عن هذا التراث الأدبى باخراج هذه المخطوطات وغيرها ، والتى لا تزال قابعة فى دور الكتب فى أنحاء العالم ، لم يكشف عنها النقاب بعد ، لوقفنا على كنز ثمين من المعارف العلمية والأدبية ، بل وربما تغير حكمنا على بعض الشعراء بصفة خاصة ، وعلى العصر كله بصفة عامة .

٨ — وأختم حديثي قائلا: ان هذه النتائج والمقترحات معروضة على بساط البحث كخطوة على الطريق ، عسى أن يستفيد منها الدارسون ، فيضيفون ، أو ينقدون ، تلك هي سنة البشر وطبيعتهم .

والخير أردت ، وما توفيقي الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

* * *

ثبت بمصادر البحث ومراجعه

أولا : القرآن الكريم .

ثانيا : المصادر والمراجع مرتبة هجائيا بحسب اسماء المؤلفين .

اسم المؤلف	اسم الكتاب ، وطبعته وتاريخها
١ ـ ابن الوردى	تتمة المختصر فى اخبار البشر ـ تحقيق احمد رفعت البدراوى ـ المعارف
٢ ـ احمد احمد بدوى (الدكتور)	أسس النقد الأدبى عند العرب ـ نهضة مصر ١٩٥٨
٣ ـ احمد الشايب (الأستاذ)	الأسلوب ـ نهضة مصر ـ ط. الثانية ١٩٩١
٤ ـ احمد شلبى (الدكتور)	التاريخ الاسلامى والحضارة ـ النهضة المصرية ١٩٦٧
٥ ـ احمد بن عبد الوهاب (النويرى)	نهاية الأرب فى فنون العرب ـ مصر
٦ ـ احمد بن على (ابن حجر العسقلانى)	الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثانية ـ دائرة المعارف ـ الهند
٧ ـ اسماعيل بن عمر (ابو الفدا) (ابن كثير)	البداية والنهاية ـ ط. السعادة مصر
٨ ـ اسماعيل باشا	هدية العارفين فى اسماء المؤلفين ـ استانبول ١٩٥٥ م
٩ ـ انور زقلمة	الممالك فى مصر ـ القاهرة
١٠ ـ بطرس البستانى (المعلم)	دائرة المعارف ـ ط. المعارف ١٨٨١ بيروت
١١ ـ تاج الدين بن عبدالوهاب (السبكى)	طبقات الشافعية الكبرى ـ القاهرة القاهرة ١٣٢٤ هـ
١٢ ـ جلال الدين عبد الرحمن (السيوطى)	حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة ـ ط. الموسوعات ١٩٢١ مصر
١٣ ـ جمال الدين ابو المحاسن (ابن تغرى بردى)	النجوم الزاهرة فى أعيان مصر والقاهرة المؤسسة المصرية للتأليف
١٤ ـ جمال الدين عبد الرحيم (الأسنوى)	طبقات الشافعية ـ ط. ديوان الأوقاف ببغداد ١٣٩٠ هـ
١٥ ـ زكى مبارك (دكتور)	الموازنة بين الشعراء ـ الحلبى ١٩٧٣ الثانية
١٦ ـ شوقى ضيف (دكتور)	العصر الجاهلى ـ المعارف ١٩٦٠ م
١٧ ـ شهاب الدين الرومى (ياقوت الحموى)	معجم البلدان ـ ط. السعادة ١٩٠٦

اسم المؤلف	اسم الكتاب ، وطبعته وتاريخها
١٨- عبد الله بن اسعد (اليافعي)	مرآة الجنان وعبرة اليقظان - الهند
١٩- عبد الجواد خلف (الدكتور)	القاضي بدر الدين ابن جماعة - حياته وآثاره - ط. الأولى ١٩٨٨ م
٢٠- عبد الرحمن بن خلدون	العبر وديوان المبتدأ والخبر ... - العامرة بولاق مصر ١٢٨٤ هـ
٢١- عبد الحي (بن العماد الحنبلي)	شذرات الذهب في اخبار من ذهب - ط. القدسي القاهرة ١٣٥٠ هـ
٢٢- عبد العزيز بن محمد بن ابراهيم (ابن جماعة)	نزهة الالباء فيما يروى عن الادباء - مخطوط ٤٠١ شعر - التيمورية
٢٣- عبد القادر بن محمد (النعيمي)	الدارس في تاريخ المدارس - دمشق ١٩٤٨ م
٢٤- علي بن محمد الشيباني (ابن الأثير)	الكامل في التاريخ - بيروت ١٩٦٦
٢٥- عمر رضا كحالة	معجم قبائل العرب القديمة والحديثة - بيروت ١٩٦٨ م
٢٦- عمر بن الملقن (سراج الدين ابو عمر)	نزهة النظار (مخطوط ١١٥٤٩ ج) دار الكتب المصرية
٢٧- عماد الدين بن اسماعيل (الملك المؤيد) (ابو الفدا)	المختصر في اخبار البشر - ط. الحسينية - القاهرة ١٣٢٥ هـ
٢٨- فتحي عثمان	شرح بردة البوصيري - المعارف ١٩٧٣ م
٢٩- فليب حتى	تاريخ العرب المطول - دار الكشاف - بيروت ١٩٦٥ م
٣٠- محمد امين الخانجي	المستدرك على معجم البلدان - ١٩٠٧
٣١- محمد ابو زهرة (الشيخ)	ابن تيمية - حياته ، وعصره ، وآراؤه - دار الفكر ١٩٥٨ م
٣٢- محمد بن ابراهيم ابن سعد الله (ابن جماعة)	غرر التبيان فيم لم يسم من القرآن - تحقيق د. عبد الجواد خلف
٣٣- محمد بن ابراهيم ابن سعد الله (ابن جماعة)	كشف المعاني عن المتشابه من المثاني تحقيق د. عبد الجواد خلف
٣٤- محمد بن ابراهيم ابن سعد الله (ابن جماعة)	تحرير الاحكام في تدبير اهل الاسلام (مخطوط برقم ٢٣٨٤١ ب - المصرية)
٣٥- محمد بن ابراهيم ابن سعد الله (ابن جماعة)	ايضاح الدليل في قطع حجج اهل التعطيل (مخطوط برقم ٦٠٦ توحيد - المصرية)
٣٦- محمد بد عبدالله الاندلسي (ابن حزم)	جمهرة انساب العرب - المعارف ١٩٤٨

اسم المؤلف	اسم الكتاب ، وطبعته وتاريخها
٣٧- محمد زغلول سلام (الدكتور)	الادب فى العصر المملوكى - المعارف ١٩٧١ م
٣٨- محمد كرد على	خطط الشام ، الاسلام والحضارة العربية
٣٩- محمود رزق سليم (الشيخ)	عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والادبى - دار الكتاب العربى ١٩٤٧
٤٠- محمود رزق سليم	الأدب العربى وتاريخه فى عصر المماليك - الكتاب العربى ١٩٥٧
٤١- مجير الدين الحنبلى	الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل
٤٢- مصطفى بن عبد الله (حاجى خليفة)	كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون - استانبول ١٩٤٣
٤٣- مهدى علام وآخرون (الدكتور)	النقد والبلاغة - المعارف
٤٤- وليم موير (سير)	تاريخ دول المماليك فى مصر - ترجمة محمود عابدين ، سليم حسن - المعارف سنة ١٩٢٤